أبو القاسم الشابي

الخيال الشعري عند العرب



الخيال الشعري عند العرب

الخيال الشعري عند العرب

تأليف
أبو القاسم الشابي



الخيال الشعري عند العرب

أبو القاسم الشابي

رقم إيداع ٢٠١٣/٨٩٩٤
تدمك: ٩ ٣٠٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

المحتويات

الإهداء

إلى حضرة الوالد الكريم

الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم الشابي الذي رباني صغيرًا، وثقفني كبيرًا، وأفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم وأقدس ما في هذا الوجود! أتقدم بهذه الصفحات التي هي أول عمل أخرجته للناس. وأنا أرجو أن أكون قد تَوَخَّيْتُ فيها صراحة الصدق وجمال الحقيقة.

أبو القاسم الشابي

كلمة المؤلف

«لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ... أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة.»

هذا الكتاب هو المسامرة التي ألقيتها بقاعة الخلدونية في العشرين من شعبان السنة الماضية، قدمتها للطبع دون أي تنقيح أو زيادة أو حذف، إلا ما كان من التعاليق التي شرحت بها ما يمكن أن يُشْكِلَ لَفْظُهُ أو يُبْهِمَ معناه، حتى يكون القارئ على بَيِّنَةٍ مما أردت قوله أو دَلَلْتُ به، وإن كنت أعلم أن كثيرًا من الآراء التي بها في حاجة إلى الشرح والبيان والتعليل، وربما إلى زيادة التمحيص والبحث ولَعَلِّي أعود إليها بالنظر في مقتبل الزمن إن سمحت بذلك الأقدار، أما الآن فحسبي أني لَبَّيْتُ بطبعها رغائب إخواننا الكثيرين من الشباب الناهض المستنير الذي لم أَخُطَّ كتابي إلا لأخاطب فيه حماس الفتوة، وأدعوه معي إلى أن نسلك بالأدب التونسي سبيل الحياة الجميل المحفوف بالأوراد والزهور.

الخيال

- نشأته في الفكر البشري.
- ما كان يفهم منه عند الإنسان الأول.
- انقسامه.

قد أراد النادي الأدبي لجمعية قدماء الصادقية أن أتحدث عن (الخيال عند العرب)، وقد لَبَّيْتُ هذا الطلب لأنه صادف من نفسي هوًى طالما نازعتني إليه، وللحديث عن الموضوع وقفتُ منكم اليوم موقفي هذا.

ولكن قبل أن أحدد الوجهة التي سأتبعها في هذا البحث، أريد أن أبسط لكم رأيي في «الخيال» في نشأته، وفي انقسامه، وفي ما كان يفهم منه. فأقول: إن لي رأيًا في الخيال لا أدري هل تشاطرونني الإيمان بصحته، أم تؤمنون ببطلانه؟ ولا أعلم هل انفردت بالذهاب إليه، أم سُبقت إلى اعتقاده؟ ولكن الذي أدريه هو هذا: أنني مؤمن أشد الإيمان بصحة هذا الرأي الذي أرتئيه، ومُعتَقِدٌ كل الاعتقاد أنه حق لا ريب فيه، وأنني لهذا الإيمان ولهذا الاعتقاد أردت أن أعرضه عليكم بين يدي هذا الحديث. وهذا الرأي ينحصر في نقطٍ ثلاث إنْ أَبَنَّاها أشرق الرأي واتضح المراد.

النقطة الأولى: هي أن الخيال ضروري للإنسان لا بد منه ولا غُنْيَةَ عنه، ضروري له كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه، ولعقله ولشعوره، ما دامت الحياة حياة والإنسان إنسانًا. وإنما كان كذلك لأن الخيال نشأ في النفس الإنسانية بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة الإنسانية الكامنة وراء الميول والرغبات، وما كان منشؤه الغريزة ومصدره الطبع فهو حي خالد، لا ولن يمكن أن يزول إلا إذا اضْمَحَلَّ العالم وتناثرت الأيام في أودية العدم.

النقطة الثانية: هي أن الإنسان الأول[1] حينما كان يستعمل الخيال في جمله وتراكيبه لم يكن يفهم منه هاته المعاني الثانوية التي نفهمها منه نحن ونسميها (المجاز)، ولكنه كان يستعمله وهو على ثقة تامة لا يخالجها الريب في أنه قد قال كلامًا حقيقيًّا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو حينما يقول مثلًا: (ماتت الريح) أو (أقبل الليل) لم يكن يعني منه معنى مجازيًّا، وإنما كان يعتقد أن الريح قد ماتت حقًّا وأن الليل قد أقبل حقًّا بألف قدم وبألف جناح. يدل لذلك ما في أساطير الأقدمين من أنهم كانوا يؤمنون بأن الريح والليل إلهان من الآلهة الأقوياء ... وتلك هي سُنَّةُ الأقدمين في ما حولهم من مظاهر الطبيعة ومشاهد الوجود ينفخون فيها من روح الحياة على ما يوافق مشارب الإنسان وطبيعة تلك المظاهر، حتى إذا ما استفادت (أُنْسَ الحياة) وأصبحت تشاركهم في بأساء الدهور ونعمائها وتساهمهم أفراح الوجود وأتراحه — على ما يخالون — ذهبوا يقيمون لها طقوس العبادة وفرائض الإجلال، فإذا بها آلهة خالدة بين آلهتهم الخالدة ... وما أكثر آلهة الإنسان عند الإنسان ... وهذا أعظم دليل على أن الإنسان متدين بالطبع، فهو ظامئ إلى منبع الحياة الأول الذي كرعت منه الإنسانية على كَرِّ العصور مشاربها المختلفة ما بين صفو وعكر ... حتى إذا ظفر برَشْفة منه اطمأنَّت نفسه وقر ضميره.

فقد رأيتم هذا المجهود الخيالي العظيم الذي يبذله الإنسان لإرواء نفسه، وهو يحسب أنه الحق الأزلي الذي لا ريب فيه، وإلا فهل كان يطمئن إليه ويقيم له فروض العبادة وهو يعلم أنه من زخرف الخيال الشارد ووحي الأوهام المعربدة؟

النقطة الثالثة: هي أن الخيال ينقسم إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة، وقسم اتخذه لإظهار ما في نفسه من معنى لا يفصح عنه الكلام المألوف. ومن هذا القسم الثاني تَوَلَّدَ قسم آخر ولَّدته الحضارة في النفوس أو ارتقاء الإنسان نوعًا ما عمَّا كان عليه، وهذا القسم الآخر هو الخيال اللفظي الذي يراد منه تجميل العبارة وتزويقها ليس غير. والقسم الأول هو أقدم القسمين في نظري نشوءًا في النفس؛ لأن الإنسان أخذ يتعرف ما حوله أولًا حتى إذا ما جاشت بقلبه المعاني أخذ يعبر عنها بالألفاظ والتراكيب، ولما مارس كثيرًا من خطوب الحياة وعجم كثيرًا من ألواء الدهور وامتلك من أَعِنَّةِ القول ما يقتدر به على التعبير عمَّا يريد، أحس بدافع يدفعه إلى الأناقة فى القول والخَلَابة في الأسلوب، فكان هذا النوع الجديد من الخيال، هذا النوع

الذي عمد إليه الإنسان مختارًا، فكان منه المجاز والاستعارة والتشبيه وغيرها من فنون الصناعة وصياغة الكلام.

ولزيادة البيان عن هذا الفكر الذي أريده أقول: إن الإنسان شاعر بطبعه، في جِبلته يكمن الشعر وفي روحه يترنَّم البيان. إذ أيُّ إنسان لا يهتاجه المنظر الساحر والمشهد الخلاب، وأيُّ امرئ لا يستخفه الجمال في أي مظهر من مظاهره وفي أية فتنة من فتنه؟

ولكن الناس يتفاوتون في إدراك الجمال والشعور به على حسب قوة هاته الغريزة الشاعرة أو ضعفها، فمنهم من تضعُف فيه هاته الغريزة ضعفًا بَيِّنًا حتى توشك أن تموت؛ لأن نفسه قد استحوذت عليها غريزة أخرى شغلت كل ما بها من فراغ. ومنهم من تقوى فيه هذه الغريزة حتى تتمرد فتطغى على كل ما عداها من الغرائز البشرية المتطاحنة. لأن النفس الإنسانية مضمار رحيب تتقارع فيه الغرائز وتتصارع فيه الميول والشهوات، وبقوة هاته الغريزة أو ضعفها يتفاوت الإحساس والشعور فيتفجَّر الشعر الخالد من بعض الأفئدة البشرية على حين أن الأخرى لا ترشح بغير الصديد. وتتكشف بعض النفوس عن عبقريات جبارة عاصفة على حين أن البعض الآخر لا يلد غير الغباوة المستخذية النائمة.

ولكن قوة هاته الغريزة أو ضعفها هي في كثير من الأحيان وليدة الحوادث والظروف. فرُبَّ دمعة يائسة أيقظت ألف عاطفة نائمة ورُبَّ ابتسامة حالمة أهاجت سواكن الوجود … ورُبَّ مشهدٍ رائع أحيا عبقرية خالدة، ورُبَّ فكرة واحدة صدعت أركان قلب كبير …

وهكذا هبط الإنسان هذه الأرض مُزَوَّدًا بتلك الغريزة الشاعرة فكانت هي الأمل الجميل الذي ينير له مسالك العيش ويمهد له سبل الحياة. وكانت هي الخيبة القاتمة التي تقذفه في هُوَّةِ اليأس وتُشقيه في نار الألم.

كذلك هبط الإنسان الأرض لا يملك غير حِسِّهِ ونَفْسِهِ وغير قلبه وشعوره، أما عقله فما زال يحلم في مهد الحياة … فكأنَّ له من مشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ألغازًا غامضة ومعاني مستترة، تبدو له ملتَفَّةً في ثوب من ضباب كما تبدو الذكريات القَصِيَّةُ في زوايا القلوب حتى إذا ما حاول أن يمسكها توارت عنه كما تتوارى الأشباح، وكان فيما بينها كالنائم السادر في أحلام الليل ورُؤاه تبهجه هذه وتبكيه تلك وتفزعه واحدة وتسكنه أخرى، ولم يكن له من عقله في تلك الساعة ذلك العقل القوي الجبار الذي عَبَّ من نهر الحياة المندفع فاشتد أسره وتوثَّقَت قواه، بل كان عقلًا ضعيفًا واهنًا متهدمًا لم تضرسه الحياة ولا علمته الخطوب.

وما كان الإنسان بخامد النفس ولا هامد الحس حتى يغضي على ما حوله زاهدًا فيه ويقنع بالجهل الأخرس والصمت الكئيب، بل كان قويَّ المشاعر متحفز الخيال. فذهب يعلل مظاهر الكون بما شاء له الشعر أن يذهب، وأخذ يفسر تعابير الطبيعة الداوية بما يملي عليه الخيال المرح والشعور النشيط، دون أن يَعْلَقَ بوَهْمِهِ قَطُّ أنه سادرٌ في الخيال بعيد عن جدد الحقيقة، وإنما كان على ثقة ويقين من أن ما وصل إليه هو في الصميم من الحق وفي الحبة من الصواب، ومن هنا كانت بذور الأساطير الدينية الأولى تثمر في النفوس وكانت المعتقدات الوثنية تتكون في أعماق القلوب تَكَوُّنَ الجنين في بطن أمه. وهذا هو منشأ الخيال في الفكر البشري القديم قبل أن تصقله الحضارة وتشذبه المدنية.

وكانت تعوزه الألفاظ أحيانًا للتعبير عما يجيش بنفسه من فكر وعاطفةٍ وشعورٍ وليدٍ، فكان يتخذ من الخيال مطايا لأغراضه وأجسادًا لمعانيه دون أن يخطر بباله أنه استعمل تلك الجملة أو الكلمة في غير ما وُضعت له — كما يقول علماء البلاغة — لأنه واثق أنها مستعملة في وضعها الطبيعي الذي (لا تمجز فيه) ولو شئت أن أسوق الكلمات تباعًا لهذا الغرض لضاق الوقت وما تم الحديث، ولكنني سأكتفي ببضع كلمات أتخذها دليلًا على مدعاي، من ذلك ما قدمته من قولهم: «أقبل الليل، وماتت الريح»، ومن ذلك «ابنة الجبل»، فإن هاته الكلمة يطلقها العرب ويريدون منها الصدى، وأنا أعتقد أن هذه الكلمة أسبق وجودًا في العربية من الصدى لأن المعاني الخيالية أقرب إلى ذهن الإنسان الأول من المعاني الحقيقية، وأعتقد أيضًا أن واضع هذه الكلمة كان يحسب أن الصوت الذي أجابه صوت جنيَّة من بنات الجبال فسماه بهذا الاسم. وهل يُنْكَرُ مثل هذا على عربي قديم لعله عاش قبل هذا العصر بآلاف القرون وبين أيدينا ما يؤيد ما ادَّعَيْتُهُ من أن الخيال يعتبر حقيقة في أول نشأته ولا يعد خيالًا، فإنني أعرف لحد الآن في بعض بوادي المملكة من لو سُئلَ عن الصدى لأخبر — بجد — أنه شيطان يهزأ بالبشر ويسخر من أبناء آدم. وأعرف في بعض جهات الجنوب من يسمون الصدى: «حديدان» وإذا استفسرتهم عن (حديدان) هذا، نبؤوك أنه شيطان يسكن الجبال والأودية ... ومن ذلك كلمة «الريح» فإنني لا أشك أن أصل هذه الكلمة كان الروح وأن واضعها كان يعتقد أنها واحدة من الأرواح الخفية المتجبِّرة ثم وقع فيها التصحيف على تراخي الزمن حتى أصبحت «الريح»، يدل ذلك أنهم جمعوها على أرواح كما جمعوا الروح هذا الجمع وأَنَّثُوا معناها كما أنثوا الروح بل وأنثوا جميع الكلمات التي تدل على معنى الريح. ثم ألا ترون هذا التقارب الكبير بين مرادفات الروح ومرادفاتها؛ فإنهم قالوا النسمة والنسيم وقالوا النفس والنفس، وليس

هذا بمستبعد عن الذهن البشري القديم، فإن من أساطير الإسكنديناف: أن الزوبعة إله من الآلهة الأقوياء يسمونه: «آجير»، وقال توماس كارليل إن البحارة في جنوب إنقليترا لم يزالوا لعهده إذا أحسوا بوادر الزوبعة يقولون: «حذار! إن آجير قادم».

وصفوة القول أنَّ الإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه، محتاج إليه بغريزته؛ لأن منه غذاء روحه وقلبه ولسانه وعقله. وأن اضطراره إليه جعله في نظره الأول حقيقة لا خيالًا، وما أصبح يعرف الخيال من الحقيقة إلا بعد أن تطورت نظرته إلى هذه الحياة وأصبح يعرف أن الليل والنهار والعواصف والبحار ليست أرواحًا ولا آلهة، وإنما هي مظاهر لهذا النظام الإلهي العتيد الذي يسخر كل شيء.

ولكنه رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأنه وإن أصبح يحتكم إلى العقل ويستطيع التعبير عن خوالج نفسه فهو لم يزل يحتكم إلى الشعور، وسيظل كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، واحتكامه إلى الشعور يدفعه ولا بد إلى استعمال الخيال؛ لأن الشعور أيها السادة هو ذلك النهر الجميل المتدفِّق في صدر الإنسانية منذ القدم، مترنمًا بأفراحها وأتراحها، متغنيًا بميولها ورغباتها، جائشًا بكل ما لها من فكر وعاطفة، ومن ضجة وسكون. ومن هذا النهر الجميل تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال، كما نشأت «فينيس» من أمواج البحار الناصعة، وعلى ضفافيه يُرَتِّلْنَ للبشرية ترانيم الحياة، ويُفَسِّرْنَ تعابير الوجود، ويفكرن في مآتي الحياة والموت وفي معاني الخلود والعدم.

أجل! فهو رغم كل ذلك لم يزل بحاجة إلى الخيال لأن اللغة مهما بلغت من القوة والحياة فلا ولن تستطيع أن تنهض — من دون الخيال — بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الذي يشمل خلجات النفوس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية وآلامها وكل ما في الحياة من فكر وعاطفة وشعور، بل إنها لا تقتدر على الاضطلاع بهذا الحِمل الثقيل حتى بالخيال وإنما الخيال يمدها بقوة ما كانت لتجدها لولاه.

وكيف يتصور من هذه اللغة الخامدة التي منشؤها هاته المادة الباردة أن تحمل بين جنبيها ذلك اللهيب المقدس المتدفِّق من أبعد قرار في النفس الإنسانية الخالدة بكل ما فيه من توهُّج وتألُّق وضياء؟

فهل تريدون أن تسمعوا من الصخرة الصماء أناشيد الملائكة؟ أم هل تريدون أن (توقعوا على ناي من القصب أنغام الفلك؟!)

إن اللغة البشرية لَأصغرُ وأعجزُ من أن تحمل مثل هذه الأمانة السماوية مهما بلغت من الرُّقِيِّ والتقدم لأنها ضيقة محدودة فانية والنفس الإنسانية فسيحة لا نهائية باقية. وستظل اللغة في حاجة إلى الخيال لأنه هو الكنز الأبدي الذي يمدها بالحياة والقوة والشباب، ولكنه مهما أمدها بالقوة والشباب فستبقى عاجزة عن استيفاء ما في النفس الإنسانية من عمق وسعة وضياء …

وقد قلت من قبل إن الخيال ينقسم في نظري إلى قسمين: قسم اتخذه الإنسان لا للتنويق والتزويق ولكن ليتفهم من ورائه سرائر النفس وخفايا الوجود، وهو هذا الخيال الذي نلمح من خلفه ملامح الفلسفة وأسرة الفكر. ونسمع من ورائه هدير الحياة الكبرى يُدَوِّي بكل عنف وشدة وهو هذا الفن الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر ويزدوج فيه الفكر بالخيال. وقسم اتخذه الإنسان أولًا ليعبر به عن ذات نفسه حين لا يجد لها مساغًا في الحقيقة العارية، ثم تطور هذا النوع مع الزمان فكان منه هذا النوع الذي نعرفه والذي أُلفت فيه كتب البلاغة على اختلافها. قلت هذا من قبل ولكنني أردت أن أقول الآن إنني أسمي هذا القسم الأول (بالخيال الفني) لأن فيه تنطبع النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على هذا العالم الكبير، وأسميه (بالخيال الشعري) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور. أما القسم الثاني فإنني أسميه (الخيال الصناعي) لأنه ضرب من الصناعات اللفظية، وأسميه (الخيال المجازي) لأنه مجاز على كل حال سواء قصد منه المجاز كما عندنا الآن أم لم يقصد منه كما عند الإنسان القديم. وبعد هذه الكلمة فأي نوع من أنواع الخيال أريد أن أبحث عنه عند العرب فللخيال نواحٍ كثيرةٍ. هل إنني سأبحث عن الخيال الفني أو عن الخيال الصناعي؟ وهل إنني سأعرض له من وجهته الصناعية البحتة التي تتناول المجاز والاستعارة والتشبيه ومبلغ قوة العرب في هذا الضرب من الكلام؟ أم إنني سأبحث في المجاز والاستعارة والتشبيه من ناحية أخرى هي تطور هاته التَّمَجُّزَاتِ مع العصور واتباعها سنة النشوء والتدرج من حسن إلى أحسن ومن صالح إلى أصلح وأثر الشعراء والكُتاب في تطور هذه المجازات ورقيها واصطباغها بألوان العصور المختلفة التي ارتقت معها في سلم الحياة، أم ماذا؟

لا أريد أن أعرض للخيال من وجهته الصناعية، لا من هاته الناحية ولا من تلك؛ لأن لمثل هاته المباحث هواتها وأنا لست منهم — والحمد لله — ولأن كلًّا من هاتين الناحيتين جامد جافٌّ في نظري لا غنية فيه ولا جمال، ونفسي لا تطمئن إلى مثل هاته المباحث الجافة ولا تحفل بها. ثم لأن مثل هاته المباحث لا يمكننا أن نستشفَّ من ورائها خوالج الأمة ولا

مشاعر الشعب ولا نستطيع أن نلمس في جوانبها ذلك النبض الحي الخفوق المترنم بأنباء النفس الإنسانية وأهوائها، ولا أن نعرف مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حي في هذا الوجود وأي فائدة من بحث قائم لا ينير سبيلًا؟

إنما أريد أن أبحث في الخيال من ذلك الجانب الذي يتكشف عن نهر الإنسانية الجميل الذي أوله لا نهاية الإنسان وهي الروح وآخره لا نهاية الحياة وهي الله. أريد أن أبحث في الخيال عند العرب من ذلك الجانب الذي تَتَدَفَّقُ فيه أمواج الزمن بعزم وشدة، وتنهزم فيه رياح الوجود المتناوحة مجلجلة داوية جامحة، وتتعاقب عليه ظلمات الكون وأضواؤه وأصباح الحياة وأمساؤها؛ ذلك الجانب الذي يستلهم ويستوحي، ويحيا ويشعر، ويتدبر ويفكر، أو بكلمة مختصرة إنني أريد أن أبحث عند العرب على ما سميته خيالًا شعريًّا أو خيالًا فنيًّا.

فالخيال بهذا المعنى الذي بسطته وعلى هذا اللون الذي تكلمت عنه هو الذي أريد اليوم أن أتلمسه في جوانب الحياة الفكرية العربية، وهو الذي أريد أن نتعرف إليه في ما أبقى لنا أجدادنا الأقدمون من تراث روحي ضخم وثروة أدبية طائلة حتى نعرف ما هي عليه من قوة وإنتاج، ولأجل هذا فإنني لا أُقْصر بحثي على ما أبقاه العرب من شعر ونثر ليس غير؛ بل إنني سأجتاز هذين إلى قسم آخر هو كالشعر صورة مغرية من صور الخيال ولون قوي من ألوان التفكير الإنساني في دور من أدوار الحياة. بل ربما لا أغلو في كثير ولا قليل إن قلت إنه أقوى دلالة من الشعر على هذا الضرب من الخيال الذي جئت للحديث عنه. أما هذا القسم الآخر فهو الأساطير وأما أنه أقوى دلالة من الشعر فلأنني أذهب إلى أن الأساطير هي الكلمة الأولى التي تَوجسها الإنسان من تعابير الحياة وحاول أن يتفهم منها معاني هذا الوجود المتناقضة وأنها هي الصوت الأول الذي رن بين جنبيه من أصوات الفكر وأجراس الشعور، أو بعبارة أدنى إلى الذهن إنها طفولة الشعر في طفولة الإنسان وما كان مصدره الطفولة الساذجة فهو أدنى إلى الطبع وأدل على النفس من أي شيء آخر لأنه يلقى بريئًا من كل كلفة أو تَصَنُّع بعيدًا عن كل زخرف أو تمويه، وعلى هذا الضوء الذي أرجو أن ينير لنا سبل الحق ويمزق أمامنا غياهب الشك والجهالة نحاول أن نمشي في هذا الدرب المتعرِّج الملتوي لعلنا نظفر خلف هذه الظلمات المتدجية والضباب المركوم بشمس الحقيقة الساطعة وفجر الأمل المنشود، وإن كنت لا أدري هل إننا سنسمع غماغم الخيال الشعري في صحراء العرب وسنلمح طيفه الجميل هازجًا في تلك الجزيرة النائية؟ أم أننا لا نبصر غير ظِلِّهِ تائهًا تحت أشعة الشمس المحرِقة ولا نتبيَّن

إلا آثار قدميه فوق الرمال؟ ومن يدري ...؟ ولكن فلنحتقب على كل حال حقيبة الصبر والأمل في هاته الرحلة الغامضة ولنبدأ سيرنا على اسم الله.

هوامش

(١) نريد بالإنسان الأول حيثما أطلقناه، ذلك الإنسان الذي ما زال على فطرة الطبيعة الأولى سواء في ذلك من أظله الدهر الدابر أو من ما زال يستنشي نسيم الحياة.

الخَيال الشِّعْري والأسَاطِير العَرَبيَّة

لا يعرف التاريخ من الأساطير العربية إلا شيئًا يسيرًا لا يستطيع باحث أن يطمئن إليه بمفرده كل الاطمئنان ليستخلص منه رأيًا فاصلًا أو نتيجة جازمة، وهو إلى ذلك مضطرب كل الاضطراب مختلط كل الخلط لا يحده نظام ولا يسوسه قانون ولا يجمعه كتاب خاص كما فى أساطير الأمم الأخرى، وإنما هو نبذ متفرقة في كثير من كتب الأدب والأخبار لا يمكن جمعها إلا بعد جهد كبير، بعضها له اتصال بعقائد العرب قبل الإسلام وبعضها له اتصال بعوائدهم والبعض الآخر يتصل بتاريخهم القديم. وقد كنت أول الأمر أحمل الوزر على الرواة الذين ازْدَرَوْا هذا الفن ولم يُعْنَوْا به عنايتهم بالشعر والأمثال الآن؛ فقد أصبحت أعتقد أن ما نقله إلينا الرواة هو كل ما عند العرب من هذا الفن وأن العرب أنفسهم ما كانوا يقيمون لهذا الفن وزنًا، ولولا ذلك لنظموا أساطيرهم كما نظمها غيرهم من الأمم القديمة كاليونان والرومان وقدماء المصريين، ولكان شعراء الجاهلية يتغنون بها في أناشيدهم وأشعارهم كما كان الشعراء اليونان والرومان يتغنون بها قبل مجيء المسيحية.

وهذا الشيء اليسير الذي حدثنا عنه التاريخ من الأساطير العربية ينقسم في نظري إلى قسمين أصليين: القسم الأول الأساطير الدينية، ويندرج تحت هذا القسم ما كان من قبيل العوائد لأن أكثر العوائد إنما هي عقائد متحجرة بمفعول الزمن. القسم الثاني: الأساطير التاريخية، وهي تلك الأخبار التي لها ارتباط بالتاريخ العربي القديم. وأراني بالرغم عن قلة الأساطير العربية واضطرابها مضطرًّا بطبيعة البحث إلى أن أقتصر على القسم الأول دون أن أعرض للقسم الثاني ببحث أو تمحيص، وذلك لأن غايتي من البحث في الأساطير العربية إنما هي معرفة حظها من الخيال الشعري قلةً وكثرةً، وقد علمتم من كلمتي السابقة أنني أَعْنِي بالخيال الشعري ذلك الخيال الذي يحاول الإنسان أن يتعرف

من ورائه حقائق الكون الكبرى ويتعمق في مباحث الحياة الغامضة، ولا أخال أن من المعقول أن يوجد مثل هذا الخيال في الأساطير التاريخية، لأن هذا النوع وإن كان من صنعة الخيال إلا أنه ليس من عمل الخيال الشعري الذي أريد الحديث عنه؛ ولذلك فإنني لا أعرض لمثل هاته القصص الطويلة التي يروونها عن عمرو بن عدي وأضرابه ممن تخطفتهم الجن تعشُّقًا أو انتقامًا ولا لمثل هاته القصص والأقاويل التي يحكونها عن شِقٍّ وسَطِيحٍ ولا لهاته الأحاديث المستفيضة عن أيام العرب وحروبهم ولا لمثل هاته الأخبار الدموية التي يحكيها الرواة عن قبيلتي طسم وجديس معللين بها فناء هاتين القبيلتين.

كل هذا وأشباهه لا أعرض له بشيء من البحث، أما الذي سأبحث فيه فهو الأساطير الدينية وما مُتَّ إليها بسبب مَتِين.

ورأيي في هذه الأساطير هو أنها لا حظ لها من وضاءة الفن وإشراق الحياة، وأن من المحال أن يجد الباحث فيها ما أَلِف أن يجده في أساطير اليونان والرومان من ذلك الخيال الخصب الجميل ومن تلك العذوبة الشعرية التي تتفجر منها الفلسفة الغضة الناعمة تفجُّر المنبع العذب، بل إنه ليعجزه أن يُلْفِي فيها حتى تلك الفلسفة الشعثاء الكالحة التي تطالعه في أساطير الإسكنديناف. فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال، ولا تمثل مظهرًا من مظاهر الكون أو عاطفةً من عواطف الإنسان، وإنما هى أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلعب الصبية وعرائس الأطفال، وبقية الأساطير الدينية لا تفصح عن فكر عميق أو شعور دقيق ولا ترمز لمعنى من المعاني السامية، وإنما هي أدنى إلى الوهم منها إلى أي شيء آخر، لا أستثني من ذلك إلا أسطورة النجوم فإن عليها شيئًا من وضاءة الشعر ونضارة الخيال.

فقد عبد العرب أربابًا متفرقة وآلهة كثيرة كغيرهم من الأمم الوثنية القديمة، ولكنهم لم يعبدوا تلك الآلهة بعد تفكير عميق في ظواهر هذا الوجود كما فعل غيرهم من أمم العالم، وإنما كانت عبادتهم على أحد ضربين: إما تأليه الأجداد أو تقليد غيرهم من الأمم في عبادة آلهتها، وبعبارة علمية: إن الباعث لتلك العقيدة الوثنية في أنفس العرب لم يكن هو «التشخيص» أي أن يخلع الإنسان على ما حوله من الأشياء ثوب الحياة وينظر إليها كأرواح حية نامية تشاركه الحس والحياة، وإنما كان الباعث عليها (عبادة الأموات) في الأكثر واحتذاء الأمم الأخرى التي سبقتها إلى التدين في معتقداتها الدينية. واتباع العرب لغير التشخيص هو السبب في أن أساطيرها لم تكن مشتملة على شيء من الخيال الشعري، ولكن قد يسأل السائل: وما الذي دفع العرب في هذه الطريق التي بعدت بهم عن الخيال

الشعري بعدًا كبيرًا؟ والجواب هو أن هذا له علاقته بالروح العربية التي سأتكلم عنها فيما بعد.

وهذا الذي قلته عن الآلهة العربية يظهر لأول وهلة من معرفة الآلهة العربية والأساطير التي يروونها عنها.

فقد عبد العرب إساف ونائلة وهما صنمان زعموا أنهما رجل وامرأة من جُرْهَمَ فَجَرَا بالكعبة فمسخهما الله حجرين! وإنني لا أفهم كيف عُبِدَا وقد حل بهما هذا العذاب، اللهم إلا أن يقال إن العطف عليهما قد استحال في النفوس إلى حُبٍّ ثم إلى إجلال ثم إلى عبادة على توالي العصور وتراخي الزمن. وعبدوا اللات والعزى، والرواة يختلفون فيهما اختلافًا كبيرًا: فمنهم من يزعم أنهما نخلتان أَلَّههما العرب، ومنهم من يزعم أنهما صنمان لرجلين صالحين كان أحدهما يلتُّ السويق للحجيج، ومنهم من يزعم أنهما صنمان جاء بهما عمرو بن لُحي. وعبدوا مناة، وهو صنم كان بين مكة والطائف. وعبدوا يغوثَ ويعوقَ وسواعًا ونصرًا وهي من آلهتهم القديمة التي نصبوها لقوم من صلحائهم بعد موتهم على سبيل الذكرى فانقلبت إلى عبادة بطول الزمن.

وعبدوا المشتري فقالوا: (عبد المشتري)، وعبدوا الشمس فقالوا: (عبد شمس)، وسموها الآلهة وزعموا أنها تهب الأسنان جمالًا وحسنًا، فكان صبيهم إذا أثغر أُخِذَ سِنَّه بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس قائلًا: «يا شمس! أبدليني بسن أحسن ولتجرِ في ظلمها آياتك!»

قال طرفة:

سقته إياة الشمس إلا لِثَاتِهِ   أُسف ولم تكدم عليه بأثمد

وقال غيره:

أبدلته الشمس من منبته   بردًا أبيض مصقول الأشر

وأحسب أن هاته العقيدة قد انقلبت إلى عادة ظلت حية إلى ما بعد الإسلام وأن بعض العرب جاء بها إلينا، وهذا ما أُعَلِّلُ به وجود هاته العادة عندنا فإن كثيرًا من جهات المملكة يأمرون أطفالهم عند الإثغار أن يفعلوا مثل هذا الفعل ويقولوا قولًا قريبًا منه. ولا أشكُّ أن عبادة المشتري والشمس قد أخذها العرب عن الأشوريين كما أخذوا عبادة تالب وآضر وهبتون وعشتر.

فقد رأيتم أن آلهة العرب لم تخرج عن ذَيْنِكَ النوعين الآنفين: تأليه الأموات أو تقليد الأمم الأخرى، وأنها لهذا لم تكن مشتملةً على فكر أو خيال وإنما هي أصنام جامدة لا تصور لونًا من ألوان الحياة. حتى إن عشتروت وهي إلهة الحب والجمال عند الآشوريين التي كانوا يصفونها بأنها موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة، والتي كان الشبان والعذارى يرتلون أغاني الحب تحت قدميها، لَمَّا عبدها العرب باسم عثتر لم يعبدوا فيها ذلك المعنى العميق الذي يصل الحب بالجمال، وإنما عبدوا فيها صنمًا لا يرمز إلى شيء ولا ينم عن فكر.

ومن أساطيرهم التي كانوا يدينون بصحتها: الغول، وهي حيوان خرافي يزعمون أنه كريه المنظر شنيع الخلقة يألف الغيران الموحشة والفيافي المقفرة ليضلل الناس ويلهوا بالجماجم، ويدعي أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أُولع تأبط شرًّا بوصفها والتحدث عنها في شعره ومن ذلك قوله:

وإني قد لقيت الغول تهوي	يسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها: (كلانا نضوُ أينٍ،	أخو سفر، فخلي لي مكاني!)
فشددت شدة نحوي، فأهوى،	لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فَخَرَّتْ	صريعًا لليدين وللجران
فقالت: «عُدْ» فقلت لها رويدًا	مكانك! إنني ثبت الجنان
فلم أنفكُّ متكئًا عليه	لأنظر مصبحًا ماذا أتاني
إذا عينان في راسٍ قبيح	كراس الهر مشقوق اللسان
وساقا مخدع وشواة كلب	وثوب من عباءة أو شنان

ومنها الصدى أو الهامة، وهي طائر خرافي يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل الذي طُلَّ دمه ويقف على قبره هاتفًا: «اسقوني فإنني صديَّة!» ولا يزال كذلك إلى أن يؤخذ بثأر القتيل فيختفي الطائر ثم لا يعود، قال شاعرهم:

له هامة تدعو إذا الليل جنها	«بني عامر! هل للهلالي ثائر؟»

ومنها شياطين الشعراء، وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن لكل شاعر شيطانه الذي يوحي إليه الشعر، ويروون أخبارًا كثيرة عن هؤلاء الشياطين، فكان صاحب امرئ القيس

لافظ بن لاحظ، وصاحب عبيد بن الأبرص هبيد بن الصلادم، وصاحب الأعشى مسحل السكران بن جندل، وصاحب زياد الذبياني هاذر بن ماذر، وصاحب الكميت مدرك بن واغم ابن عم هبيد صاحب عبيد بن الأبرص.

ومنها أسطورة النجوم وهم على خلاف فيها، فمنهم من يقصها على هذا النحو وهو: «أن سهيلًا وأختيه العبور والغميصاء كانت ثلاثتها مجتمعة ثم انحدر سهيل إلى ناحية اليمين بعد أن خاض نهر المجرة وتبعته إحدى أختيه حتى غمصت عينها فسميت غميصاء». ومنهم من يرويها على وجه آخر هو «أن سهيلًا كان فارسًا جميل الطلعة ساحر المنظر فخانه الحظ في معركة سماوية وراء المجرة فخرَّ صريعًا تكسوه الدماء الفانية فراع أختيه مصرع أخيهما الباسل فعبرت إليه إحداهما نهر المجرة وظلت واجمة عند رأسه وفي جفنيها عبرة حائرة: فسميت عَبورًا. وقعد بالثانية الرزء الفادح والحزن المرير عن اللحاق بأختها فانهلت تذرف الدموع حتى غمصت عينها الباكية … فسميت غميصاء».

فهل رأيتم فيما تلوته عليكم من أساطير العرب واحدة تشرق بالفن والحياة كما يشرق الكوكب بالنور الجميل والوردة بالعطر الأريج؟ وهل وجدتم فيها جمالًا أكثر من هذا الحديث الخيالي الوضيء الذي يروونه عن سهيل وأختيه؟ وكذلك كانت أساطير العرب، وثنية جامدة جافية لم تفقه الحق ولا تذوقت لذة الخيال، وأوهام معربدة شاردة لا تعرف الفكر ولا اشتملت على شيء من فلسفة الحياة … أما أساطير الأمم الأخرى فقد كانت مشبعة بالروح الشعرية الجميلة زاخرة بفلسفة الحياة الفنية الراقصة في ظل الخيال … فقد أخذ اليونان كثيرًا من عقائدهم وأساطيرهم عن الآشوريين كما أخذ العرب أنفسهم، ولكنهم طبعوها بطابع حياتهم الخاصة فكانت رشيقة شعرية ساحرة أكثر ممَّا كانت عليه عند الآشوريين، فهم أخذوا عن الآشوريين عبادة إلهة الحب والجمال: «عشتروت» كما أخذها العرب عنهم، ولكن العرب عاملوها كما يعاملون أنصابهم التي لا ترمز إلى فكر ولا تمثل عاطفة، فكانت صنمًا حجريًّا جامدًا تحجبه الكآبة الصماء والسكون الأليم. أما اليونان فقد اتخذوا لها اسمًا آخر هو: «أفروديت» ونسجوا حول نشأتها أساطير شعرية لم يعرفها الآشوريون، فكانوا يزعمون أنها خلقت من أمواج البحار! واتخذوا إلهًا للحب سموه: «إيروس» وزعموا أنه ابن أفروديت وأن له جناحين ذهبيين وأنه يحمل أبدًا سهامًا حادة ومشاعل تلتهب …! أرأيتم هذا العمق في الفكر وهاته السعة في الخيال في الأسطورة التي تزعم أن أفروديت قد خلقت من أمواج البحار؟

أي شيء أنصع من أمواج البحار وأطهر؟ وأي شيء أعمق من البحر؟ وأدوى من لجج اليم بمعاني الحياة؟ وأي شيء أجمل من البحر في عمقه وسكونه؟ وأقوى من البحر في ثورته الطاغية؟ كذلك الجمال، فيه من القوة والعمق ما في الحياة التي أنشأته. وكذلك تُخلق ربة الجمال من أمواج البحار التي تتمثل فيها قوة الحياة وعمقها وطهارتها. ثم ألا ترون هاته الأسطورة الأخرى التي تجعل من الحب طفلًا جميلًا نبيلًا أنجبته إفروديت يتألق في منكبيه جناحاه الساحران، ويحمل في راحتيه نباله الحادة ومشاعله النارية؟ ألا تحسون بأمواج الخيال فيها تلاعب شاطئ الحقيقة؟ ترى هل كانت الإنسانية تعرف الحب لو لم تعرف الجمال؟ وهل كان الحب في الحقيقة وعند النفس إلا طفلًا مسلحًا … له غرارة الطفولة وطهارتها الساذجة، وله طيشها وتجنيها، وله مشاعله النارية التي قد تنير وجوه الدهر وقد تحرق آمال القلوب؟

وهكذا كانت آلهة اليونان وأساطيرهم عنها: آراء شعرية يتعانق فيها الفكر والخيال، فكل آلهة رمز لفكرة أو عاطفة أو قوة من قوات الوجود، وكل أسطورة صورة شيقة من صور الشعر يقرؤها الباحثون فيحسون أنها صادرة عن مخيلة قوية وإحساس فياض يشمل العالم ويحس بأدق أنباض الحياة. فكما أنهم قد جعلوا للحب إلهًا وللجمال آلهة، فكذلك جعلوا للحكمة آلهة وللشعر والموسيقى إلهًا ولغير هذه من المعاني العميقة ومظاهر الكون الرائعة أرواحًا وحياة تُحَسُّ وتُشْعَرُ بحيث كانوا ينظرون إلى الوجود من خلال أساطيرهم ونظرة فنية تحس بتيار الحياة يتدفق في كل كائن ويستجيش في كل موجود. وإنني لأكتفي بواحدة من أساطيرهم تبين لكم مذهبهم في الوجود، فقد كانوا يعتقدون أن الصدى جنية من بنات الجبال والأودية، وأنها كانت خلابة المنظر والحديث، فمرت بها يومًا «هيرا» وكانت ذاهبة لتفاجئ زوجها مع بعض عشيقاته في إحدى مقاصير الأولنب، فاستهواها صوتها حتى فاتها الغرض وفرت العشيقات إلى مآويهن، فتملَّك نفسها الغضب على الصدى فسلبتها قوة الكلام إلا إعادة ما تسمع، فأصبحت من ذلك الحين آلهة حائرة تتلقف الأصوات لترجعها كأنَّات الألم. تلك كانت أسطورة اليونان عن الصدى. أما العرب فبالرغم عن أنهم يسمون الصدى: «ابنة الجبل» فإنهم لم يؤلفوا أسطورة عنها تتغنى بوحشتها وانفرادها بين الجبال وتترنم بخلجات قلبها بين الغيران والأدية.

وكذالك كانت أساطير الإسكانديناف،[١] فبالرغم عن أنها جافية كالحة لا حَظَّ لها من رقة أساطير اليونان وخلابتها، فإنها تأخذ من الفلسفة والشعر بحظ وافر، فمن

أساطيرهم: أنهم كانوا يرون الحياة شجرة قوية راسخة تضرب بعروقها في مملكة الموت وتنتشر بفروعها في آفاق السماء وعند أصلها في مملكة الموت يجلس الأمس واليوم والغد يروون جذورها من البئر المقدسة وهي دائمًا تورق ثم تزهر ثم تثمر ثم يجف ما عليها من ورق وزهر وثمر ليهوي إلى مملكة الموت حيث يجلس الأمس واليوم والغد. فهل رأيتم فيما نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالًا وأصدق تصويرًا للحياة من هاته الأسطورة؟ وهل رأيتم واحدة من أساطير العرب تدانيها سعة في الفكر وغزارة في الخيال؟

هوامش

(١) سكان جزيرة سيلاند الأقدمون.

الخيال الشِّعْري والطبيعَة في رَأي الأدب العَربي

أما ذهبتم في يوم من أيام الربيع الحالمة إلى بعض ضواحي المدينة، حيث البرية المهتزة الناضرة والغاب المونِقُ الجميل؟ أما رأيتم ذلك البلبل الأنيق المتنقل بين الغصون المورِقة، يترنَّم بأغاريده الرقيقة الشجية؟ أما أبصرتم تلك القُبَّرَةَ الرشيقة المتخطرة بين مخاوف الأشجار وحول مسارب الحقول تتغنى بتلك الأناشيد العذبة الطاهرة؟ أما شاهدتم في ضحوة النهار تلك الفراشة الجميلة ترفرف حول الأعشاب البليلة، وتلك النحلة الهاجزة تحوم بين الزهور السكرى بأنوار النهار؟ أما ساقطت إليكم ذات يوم نسمات المساء الوادعة ذلك الصوت الفضي الجميل المتجاوب في ظلام الغاب؟

ثم أما أحسستم إذ ذاك وأنتم بين أحضان الطبيعة بذلك الشعور القوي الغامض الثَّمِل يستحوذ على مشاعركم ويستولي على نفوسكم فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفاني؟ ستقولون: بلى! ولكن أي شيء هو هذا الذي حَرَّكَ في نفس البلبل حب النشيد فانطلق يغني بين الغصون المزهرة، وداعب قلب القُبَّرَةِ الصغيرة فاندفعت تتغرد راقصة بين الحقول، وأثار الفراشَ فرفرف بين الشقيق والأقحوان، وأهاج النحلة فانطلقت تدمدم فوق أعشاب الربيع باحثة عن رحيق الورود. وأيقظ في أعماقكم ذلك الإحساس المبهم المبهج اللذيذ؟ أي شيء يا ترى هذه القوة الساحرة التي تسكر كل شيء وتعبث بكل شيء؟ إنها هذا الروح الإلهي النبيل الذي تبصرونه في السماء والماء والنور والفضاء، وفي الوردة الناضرة والنسمة الطائرة وفي حلة الموج ووميض النجوم. إنه الجمال الخالد المعبود الذي أحس به أهل بابل فعبدوه في (عشتروت) وشعر به اليونان

فقدسوه في (أفروديت) واستفز قلوب الرومان فمجدوه في (فينيس) وأقامت له الإنسانية كلها معابد المجد في أعماق القلوب ...

فالجمال هو الذي نَبَّه الطائر فغرد وأيقظ الفراش فحوم واستخف النحلة فطافت بين الرياض واتخذ من أنفسكم هيكلًا شعريًّا تعبدونه فيه وأنتم لا تشعرون.

والجمال هو الذي أنطق شعراء الوجود بتلك الأناشيد الخالدة المتغنية بجلال الكون ومجد الحياة.

والجمال هو الذي مهد للإنسانية هذا السبيل الذي تضرب فيه واستثار أفكار الجبابرة من مراقد النسيان.

ولولا هذا الجمال المنبث في مظاهر الكون وطواياه لاتخذت الإنسانية سبيلًا آخر غير هذا الذي تعرفه ولحُرِمَ العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول ...

وبعد، فما الذي أريد قوله من وراء هذا الكلام؟ أريد أن أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي الذي يستفز كوامن الحس ويهز أدق أعلاق الشعور والذي عرفتم أثره في نفوسكم كلما خلوتم إلى أحلامكم بين أحضان الطبيعة. أقول إن مثل هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي ينبغي أن توزن فيه نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب لِيعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد، وأن على حسب ما في الإقليم من جمال وروعة تكون شاعرية الأمة، فإن كان وسطها الطبيعي بهيجًا نضيرًا كانت شاعرية الأمة خصبة منتجة، وإن كان كالحًا مقشعرًّا كانت كزة مجدبة. بل أزيد: أن على حسب طلاقة الجو أو قطوبه تكون نفسيات الأمم والشعوب، فإن كان الجو طلقًا ضحوكًا كان روح الأمة مفراحًا مرحًا، وإن كان الجو جهمًا عبوسًا كان روح الأمة داجيًا مكتئبًا. ولماذا لا يكون للوسط الطبيعي أثره الفعال في تكوين نفسيات الأمم وطبعها على غراره، وقد تحقق العلماء أن له الأثر القوي في خلق المزاج الفردي وتكوينه؟

وإذًا فماذا يمكنني أن أقول عن الأمة العربية إذا أخذت هذا القياس وطبقته عليها ناظرًا إلى الوسط الطبيعي الذي عاشت فيه، لا يمكنني أن أقول إلا أن شاعريتها ستكون شبيهة كل الشبه بالوسط الطبيعي الذي نَمَتْ وتدرَّجَت فيه. فبما أن الأمة العربية قد عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال الذي يستفز المشاعر ويؤجِّج الخيال لأنها قطعة عارية قاحلة لا يعترض العين فيها غير الموامي المقفرة الموحشة والصحاري الضامية المترامية يخطف في حواشيها السراب، وقد يعثر الطرف فيها على رقعة يهتز فيها النبات أو جدول يتدفَّق بين الرمال أو غدير نائم بين الصخور العارية. بما أن الأمة العربية قد

عاشت كذلك فينبغي أن تكون شاعريتها قريبة من هذه الأرض كل القرب فيها ما فيها من ضياء وإشراق ومن بساطة وسذاجة، وقد عرفتم من قبل كيف كانت أساطير هاته الشاعرية، والآن نريد أن نعرف كيف كانت الطبيعة في نظر هذه الشاعرية وهل كان لهاته النظرة من الخيال الشعري حظٌّ وافر أم لم يكُن، فأقول: أهم الأدوار التي ينقسم إليها الأدب العربي أربعة: الدور الجاهلي والدور الأموي والدور العباسي والدور الأندلسي، وفي هاته الأدوار الأربعة سيكون بحثي عن الطبيعة وحظها من الخيال الشعري.

أما الدور الجاهلي والدور الأموي فقد كانا خاليين أو كالخاليين من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود ويشبِّب بجمال الطبيعة وسحر الربيع، أقول أو كالخالي لأننا نجد في شعر هذين العصرين شيئًا من ذلك ولكنه نادر كل الندور، ثم إنه على قلته وندوره لم يكن من هذا النوع الذي يشتعل خيالًا وحسًّا ويتألق جمالًا وفنًّا، والذي تحس النفس من ورائه بنشوة الشعر وتلهُّب العاطفة؛ لأن الشاعر لم يكن يذكره في القصيد لأنه استغوى نفسه واستهوى شعوره، بل لأنه قد أتى به جميل السيل وفيض الكلام، ولولا الاستطراد وسوق الحديث لما ذكره. كان يعن له وصف محبوبته أو رائحتها فلا يجد وسيلة إلى ذلك إلا أن يقول كما قال الأعشى:

ما روضة، من رياض الحسن، معشبة	خضراء، جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب[1] شرق	مؤزر[2] من عميم النبت، مكتهل
يومًا بأطيب منها نشر رائحة	ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أو يقول كما قال كثير عزة:

فما روضة، زهراء، طيبة الثرى،	يمج الندى جثجاثها، وعرارها[3]
بأطيب من أردان عزة موهنًا	إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

أو يستعيد بذاكراته ما مَرَّ له في ريق العمر وانبلاج الشباب من لذة شائقة واغتباط أمين، ثم كيف عصف الدهر بذلك الشمل الجميع فأصبحت مراتع اللهو ومساحب أذيال الصبا ملعبًا من ملاعب الريح وملهًى من ملاهي الربيع كما يقول عنترة:

ولقد مررت بدار عبلة، بعدما	لعب الربيع بربعها المتوسم[4]

جادت عليه كل بكر، حرة،	فتركن كل قرارة كالدرهم
سحًّا، وتَسكابًا، بكل عشية	يجري عليها الماء، لم يتصرم
وخلا الذباب بها، فليس ببارح	غردًا، كفعل الشارب المترنم
هزجًا، يحك ذراعه بذراعه	قدح المكب على الزناد الأجذم

أو أن يحكي حديثًا من أحاديث محبوبته فيتعرض عرضًا لذكر الموضع الذي كانت فيه عند ذكر الحديث كما يقول ابن أبي ربيعة:

قالت لجارتها عشاء، إذ رأت	نزه[٥] المكان، وغيبة الأعداء
في روضة، يممنها مولية،[٦]	ميثاء،[٧] رابية، بعيد سماء
في ظل دانية الغصون، وريقة،	نبتت بأبطح، طيب الثرياء[٨]
وكان ريقتها صبير[٩] غمامة	بردت على صحو، بعيد ضحاء:
«ليت المغيري العيشة أسعفت	دار به! لتقارب الأهواء»

على أننا قد نجد أيضًا في شعر هذين العصرين، شيئًا من الشعر الطبيعي الجميل الذي يمثل مظاهر الطبيعة ويصور البرق والرعد والسحاب، ولكننا نقرؤه فلا نحس فيه روح الشاعر المُلْتَذَّةَ المُعْجِبَةَ، ولا نسمع صوتًا من أصوات القلوب، وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضًا أمينًا، وقد لا تخلو في عرضها من أناقة وطرافة، كما يقول امرؤ القيس:

ديمة هطلاء، فيها وطف	طبق الأرض، تحرَّى، وتَدُر[١٠]
فترى الود إذا ما أشجذت	وتواريه، إذا ما تعتكر[١١]
وترى الضب خفيفًا، ماهرًا	ثانيًا برثنه، ما ينعفر[١٢]
وترى الشجراء، في ريقها	كرؤوس قطعت فيها خمر[١٣]
ساعة، ثم انتحاها وابل،	ساقط الأكناف واهٍ، منهمر[١٤]
راح، تمريه الصبا، ثم انتحى	فيه شؤبوب جنوب، منفجر[١٥]
ثج، حتى ذاق عن آذيه	عرض (خيم) (فخفاف) فيسر[١٦]
قد غدى يحملني في أنفه	لاحق الأَيْطل، مَحبوك، مُمر[١٧]

أو كما يقول أوس بن حجر:

إني أرقت، ولم تأرق معي صاح! لمستكف، بعيد النوم، لواح[١٨]
يا من لبرق! أبيت الليل أرقبه في عارض، كمضي الصبح، لمَّاح[١٩]
دان، مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح[٢٠]
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة، أو ضوء مصباح[٢١]
ينفي الحصا عن جديد الأرض مبترگا كأنه فاحص، أو لاعب، راح[٢٢]
كأن ريقه — لما علا شطبًا — أقراب أبلق، ينفي الخيل، رماح[٢٣]
كان فيه عشارًا، جلة، شرفًا، شعثًا، لهاميم، قد همت بإرشاح[٢٤]
بحًّا حناجرها، هدلًا مشافرها، تسيم أولادها في قرقر ضاح[٢٥]
هبت جنوب بأولاه، ومال به إعجاز مزن، يسح الماء، دلاح[٢٦]
فأصبح الروض والقيعان ممرعة من بين مرتفق منها، ومن طاح[٢٧]

أو كما يقول ملحة الجرمي:

أرقت، وطال الليل، للبارق الومض حبيا سرى مجتاب أرض إلى أرض[٢٨]
نشاوى من الإدلاج كدرى مزنه يقضي بجدب الأرض ما لم يكن يقضي[٢٩]
تحن بأجواز الفضاء قطراته، كما حن نيب بعضهن إلى بعض[٣٠]
كأن الشماريخ العلا من صبيره شماريخ من لبنان في الطول والعرض[٣١]
يباري الرياح الحضرميات مزنه بمنهمر الأرواق، ذي قزع رفض[٣٢]
يغادر محض الماء ذو هو محضه على أثره، إن كان للماء من محض[٣٣]
يروي العروق الهامدات من البلى من العرفج النجدي ذوباد والحمض[٣٤]
وبات الحبي الجون ينهض مقدمًا كنهض المداني قيده، الموعث، النقض[٣٥]

فقد رأيتم كيف أن أدب هذين العصرين قد كان لا يعرض لوصف مناظر الطبيعة إلا إذا دعت إليها الضرورة دون أن يسهب في الوصف ويُشْبِعَ القول، وكيف أنه إذا تحدَّث عن ظواهر الطبيعة أسهب في القول وأطال البيان. ولكنه في كل ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر وخشوع المتعبد، بل يتناولها تناول القاصِّ الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله، وإنما الذي يهمه هو أن يصفه كما رآه، دون أن يخلع عليه حلة من شعوره أو عبقًا من عواطفه.

وإن لهذا علته المعقولة، فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي كما قلتُ من قبلُ، فلم يتحدَّث أدبهم عن هذا الجمال، وكيف يتحدث عنه وهو لا يعرفه؟ ثم إنه لم يتحدث عن ظواهر الطبيعة بلهجة المعجب المأخوذ؛ لأن الطبيعة لم تخلع على أرضهم من نظارة الحسن ما يحرك في قلوبهم أدقَّ وشائج الحس ويفتح قلوبهم لتذوق ألوان الجمال … فظلت قلوبهم موصدة لا تعرف هاته اللذة ولا تفقه ذيَّاك الشعور. زيادة عن أنهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الأرض اختلاطًا كبيرًا من شأنه أن يلطف الطبع ويرقق المزاج.

وإذن فقد كان الأدب العربي في هذين العصرين خاليًا من الشعور بجمال الطبيعة والحديث عنه إلا أصواتًا ضئيلة خافتة تنطلق من حين لآخر كغمغمة الحالم الذي لا يفْقَهُ ما يقول. وكان العرب واقفين أمام مشاهد الكون، لا وقفة المتهيب الخاشع؛ لأن مثل هاتِهِ الوقفة مما كان الباعث عليه نشوة الحس وسكرة الخيال لا بد أن ينفجر يومًا عن خير ما تتفق عليه القرائح والعقول، بل إنها وقفة الأخرس الذي لا ينطق، والأعمى الذي لا يبصر أضواء النهار …

وكذلك ظل الأدب العربي حتى أظل العصر العباسي حياة العرب، فكانت عادات وأخلاق وأمزجة وطباع، غير ما أَلِفَ العرب من طباع وأمزجة وأخلاق. وكان أن اصطبغت الحياة الإسلامية بصبغة قوية مشتركة من حضارات عتيدة متباينة، تكوَّنت منها حضارة جديدة مهلهلة ناعمة، تجمع كل ما عرف الفرس والروم والإسلام من فكر وطبع ودين، فكان لهذا كله أثر غير يسير على النزعة العربية الجافية. وكان أن أتقن اللغة العربية كثير من الفرس والروم، ونظموا فيها الشعر بأمزجة غير الأمزجة العربية وأذواق غريبة عن طبائع العرب، وكان أن سكن نبغاء شعراء العرب العواصم والمدن واستبدلوا بشظف العيش وعُنْجُهِيَّةِ البداوة غضارة الحضر ورقة المدنية المترفة، فعاشوا في أوساط جميلة لم تبخل عليها السماء بما بخلت به على الوسط الطبيعي الذي نشأ فيه أدب العصر الأموي والجاهلي قبله.

وفي هذا الوسط المترف الذي تغيَّر فيه كل شيء، شَبَّ ذلك الفن الطبيعي الوليد، الذي يَتَغَنَّى بسحر الطبيعة في مختلف المظاهر وشَتَّى الألوان، فأصبحنا نسمع من الأدب أصواتًا لم تألفها أسماعنا من قبل فيها رقة وعذوبة، وفيها طلاوة وحلاوة. أصبحنا نسمع أبا تمام يقول:

يا صاحبيَّ! تقصيا نظريكما … تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارًا مشمسًا، قد شابه … زهر الربا، فكأنما هو مقمر!
دنيا معاش للورى، حتى إذا … جاء الربيع فإنما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها … نورًا، تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى … فكأنها عين إليك تحدر[٣٦]
تبدو، فيحجبها الجميم، كأنها … عذراء، تبدو تارة، وتخفر[٣٧]
حتى غدت وهداتها ونجادها … فئتين في حُلَلِ الربيع تبختر
مصفرة، محمرة فكأنها … عصب تيمن في الوغى وتمضر[٣٨]
من فاقع، غض الشباب، كأنه … دُرَرُ، تشقق قبلُ، ثم تزعفر
أو ساطع في حمرة، فكأنما … يدنو إليه من الهواء معصفر[٣٩]

ونجد البحتري يقول:

أتاك الربيع الطلق، يختال ضاحكًا … من الحُسن، حتى كاد أن يتكلما[٤٠]
وقد نبه النوروز، في غلس الدجى … أوائل ورد، كُنَّ بالأمس نُوَّمَا
يفتقها برد الندى، فكأنه … ينث حديثًا، كان قبل مُكَتَّمَا[٤١]
ومن شجر، رد الربيع لباسه … عليه، كما نشرت وَشِيًّا منمنمَا[٤٢]
أحل، فأبدى للعيون بشاشة … وكان قذًى للعين، إذ كان محرمَا

ويقول:

ألم تر تغليس الربيع المبكِّرِ … وما حاك من نشر الرياض المنشر[٤٣]
وسرعان ما ولى الشتاء، ولم يقف … تسلل شخص الخائف، المتنكر
مررنا على (بطياس)، وهي كأنها … سبائب عصب، أو زرابيُّ عَبْقَرِ[٤٤]
كان سقوط الفطر فيها — إذا انثنى … إليها — سقوط اللؤلؤ المتَحَدِّرِ
وفي أرجوانيٍّ، من النور، أحمر، … يشاب بإفرنْدٍ، من الروض أخضر
إذا ما الندى وافاه صبحًا تمايلت … أعاليه، من در نثير، وجوهر
إذا قابلته الشمس رد ضياءها … عليها صقال الأقحوان المنور[٤٥]
وإن عطفته الريح قلت التِفَاتَةٌ … (لعلوة) في جاديها المتعصفر[٤٦]

وأصبحنا نبصر في الأدب العربي مثل قول ابن الرومي:

وظلت عيون النور، تَخْضَلُّ بالندى كما اغرورقت عين الشجي، لتدمعا
يراعينها صورًا إليك، روانيا ويلحظن ألحاظًا من الشجو خُشَّعَا[47]
وبين إغضاء الفراق عليهما كأنهما خِلَّا صفاء تَوَدَّعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس، فاخْضَرَّ اخضرارًا مشَعْشَعَا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغني الطير فيه وسَجَّعَا[48]
وغرد ربعي الذباب خلاله كما حثحث النشوان صنجًا مشرَّعَا[49]
فكانت أرانين الذباب هناكم على شدوات الطير ضربًا مُوَقَّعَا

ومثل قوله:

إذا شئت حيتني بساتين جنة على سُوقها، في كل حين تنَفسُ
وإن شئت ألهاني سماعٌ بمثله حمام تغني في غصون توسوس[50]
تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت فتسمو، وتحنو تارة فتنكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها أفادت بها أنس الحياة، فتأنس
توامض فيها — كلما تلمع الضحى — كواكب، يذكو نورها حين تشمس!

ولكن هذا الفن الوليد لم يكثر كثرة مطلقة في الأدب العباسي! ولم يَتَفَشَّ فيه كما تَفَشَّى في الأدب الأندلسي، وما ذاك إلا لأن الوسط الطبيعي الذي نَمَتْ فيه حياة الأدب العباسي لم يَكُنْ من الجمال والروعة كما كانت بلاد الأندلس الجميلة.

فقد تفشى هذا الأدب الطبيعي الجميل في البلاد الأندلسية تَفَشِّيًا عظيمًا حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر، وحتى أصبحت الطبيعة هي الحُلم البهيج الذي يملأ قلوب الشعراء في سكرات الخيال، وهي الأغنية المُحَبَّبَة التي يترنمون بها في أمسياتهم الجميلة الحالمة ولياليهم العذبة الفاتنة.

غير أن لي في الأدب الأندلسي وبالأخص في الطبيعي منه رأيًا جديدًا ربما لا توافقونني عليه ولكنني قائله لكم ولولا ذلك لما أعلمتكم به.

ينحصر هذا الرأي في أن الفن الطبيعي في الأدب العباسي أبعد نظرًا وأعمق خيالًا، وأدق شعورًا منه في الأدب الأندلسي. رغمًا عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من

الأدب العباسي وغيره، ورغمًا عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره، ورغمًا عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوبًا وأدق تصويرًا، ورغمًا عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالًا وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبتت ذلك الأدب العباسي الجميل؛ فإنني لأجد من صدق الشعور وقوة العاطفة عند البحتري وأبي تمام وابن الرومي ما لا أجده عند ابن خفاجة وابن زيدون وغير هذين من شعراء الأندلس.

ثم ما رأيكم أنتم؟ ألا تحسون بهذه النظرة البعيدة النافذة، وبهذا الخيال القوي العميق في بيت أبي تمام:

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هي «منظر»

أيُّ خيالٍ أعمق وأيُّ نظرٍ أبعد؟ أليس من بعد النظر وعمق الخيال أن يحس الشاعر بتلك (الدنيا) الخيالية الرائعة التي يخلقها الربيع ويتكشف عنها الوجود. تلك الدنيا البريئة الطاهرة التي لم تخلق لمشاغل العيش وأرجاسه وإنما خلقت للذة «النظر» وإمتاع النفوس الشاعرة؟

ثم ألا تشعرون بهذا الإحساس القوي الصادق في بيت البحتري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا من الحسن حتى «كاد أن يتكلما»!

هذا الإحساس العميق اليقظ الذي يكاد يستمع إلى صوت الربيع؟

ثم ألا تحسون بهذا الشعور المشتمل في بيت ابن الرومي:

إذا ما أعارتها الصبا حركاتها أفادت بها «أنس الحياة» فتأنس

هذا الشعور الصادق الذي يحس بروح الحياة السارية في عروق الكون؟

بلى! إن في هذه الأبيات الثلاثة من عمق الخيال ودقة الإحساس بجمال الوجود ما لا يظفر بمثله في الأدب الأندلسي على ما في البلاد الأندلسية من نضارة وحُسْن لم ترزق مثلهما البلاد الشرقية، وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة صدمة قوية كادت تزعزع إيماني بصحة تلك النظرية التي قلتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي) ولكنني وجدت بعد ذلك العامل الحقيقي الذي أَثَّرَ في الأدب الأندلسي هذا الأثر البعيد، وهذا العامل هو أن الأدب الأندلسي قد نشأ في عصر توفَّرَت فيه أسباب الحضارة توفُّرًا منكرًا.

فانغمست النفوس في حمأة الشهوات انغماسًا أمات بها العواطف الهائجة وأخمد نوازي الشعور. فأصبح تيار الحياة يتدفَّق عن إيمان الناس وشمائلهم وهم لا يشعرون، وأصبحت الطبيعة في أنظارهم وسيلة جامدة من وسائل اللذة لا منبعًا خالدًا من منابع الإلهام. وهكذا أخمدت تلك الأنوثة المترفة توهُّج الشعر وضياء القرائح على أنها هذبت من الألسنة ورققت أساليب الخطاب فكان الشعر الأندلسي رقيقًا طليًّا ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور.

ولنأخذ بعدَ هذا في الشعر الأندلسي لنعرف كيف كانت الطبيعة في نظره. يقول ابن خفاجة شاعر الطبيعة على ما يقول الكثير:

لله نهر سال في بطحاء!   أشهى ورودًا من لَمَى الحسناء
مُتَعَطِّفٌ مثل السوار كأنه   والزهر يكنفه مجر سماء
قد رَقَّ حتى ظُنَّ قرصًا مفرغًا   من فضة في بُردة خضراء
وغدت تَحُفُّ به الغصون كأنها   هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدرًا   متلويًا كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الأصيل على لُجَيْنِ الماء

ويقول:

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها   ريح، تلف فروعها، معطار
عاطى بها الصهباء أحوى أحور   سحَّاب أذيالِ الصبا، سَحَّار
والنور عقد، والغصون سوالف   والجزع زند، والخليج سوار[٥١]
بحديقة، ظل اللمى ظلًّا بها   وتطلعت شنبابها الأنوار
رقص القضيب بها، وقد شرب الثرى   وشدى الحمام، وصفَّق التيار
غَنَّاء، أَلْحَفَ عطفها ورق الندى   وَالْتَفَّ في جنباتها النوار
فتطلعت في كل موقع لحظة   من كل غصن صفحة وعذار

وعلى هذا النحو كل ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة: براعة في الوصف وجمال في الأسلوب. دون أن تجد خيالًا قويًّا أو شعورًا دقيقًا. وإنْ أَعْجَبْ فلطائفة تسمي ابن خفاجة شاعر الطبيعة. وغاية ما أرى فيه هو أن في نفسه ميلًا إلى الطبيعة شغلته اللذة

واللهو عن الإفصاح عنه وإنَّ في قلبه شغفًا بالوجود كَفْكَفَهُ المُجون ... يدل لذلك إكثاره من الحديث عن جمال الطبيعة ومواقع الفتنة منها.

ويقول ابن زيدون:

كان عشي القطر في شاطئ النهر — وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر
ترش بماء الورد رشًّا، وتنثني — لتغليف أفواهٍ بطيبة الخمر

ويقول:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا — والأفق طلق، ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله — كأنَّمَا رَقَّ لي فاعْتَلَّ إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم — كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم، كأيام لَذَّاتٍ لنا انصرمت — بِتْنَا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر — جال الندى فيه، حتى مال أعناقا
كأن أعيُنَه — إذ عَايَنْتُ أَرَّقَنِي — بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
وَرْدٌ تَأَلَّقَ في ضاحي منابته — فازداد منه الضحى في العين إشراقا
سرى بنافجة نيلوفر عبق — وَسْنَانَ، نَبَّهَ منه الصبحُ أحداقًا[٥٢]

وتقول إحدى شواعر الأندلس:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ — سقاه مضاعِف الغيث العميم
نزلنا دوحَهُ، فَحَنَا علينا — حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإٍ زلالًا، — ألذ من المُدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى — فتلمس جانب الدر النظيم

ويقول ابن سهل:

اغنم زمان الوصل، قبل الذهاب
فالروض قد وافاه دمع السحاب

وقـد بـدا فـي الـروض سـر عـجـاب

* * *

ورد ونــســريــن، وزهــر الأقــاح
كــــالــــمــــســـــك فــــاح
والـطـيـر شـاد بـاخـتـلاف الـنـواح

* * *

لـمـا رأيـت الـلـيـل أبـدى الـمـشـيـب
والأنـجـم الـزهـر هـوت لـلـمـغـيـب
والـورق تـبـدي كـل لـجـن عـجـيـب

* * *

ناديت صحبي — حين لاح الصباح —
قـــــــــولًا صـــــــــراح:
حــي عــلــى الــلــذات والانــشــراح!

وعلى هذه السُّنَّة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة وتعابير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل، ولكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق. والآن وقد تلوتُ عليكم شيئًا من الشعر الطبيعي في عصوره المختلفة فأحسستم بهذا الفارق العظيم بين الدورين الأولين وبين الدورين الأخيرين في نمط اللفظ وصياغة الكلام، وشعرتم بهذه الفروق الدقيقة التي بيَّنها في تناول الأشياء والنظر إليها، ورأيتم شيئًا كثيرًا من البساطة وعدم الاكتراث في الشعر الجاهلي والأموي حينما يحاول أن يصف مواضع الفتنة والملاحة من هذا الوجود، ثم عرفتم كيف أن الحضارة العباسية قد حوَّرت شيئًا غير يسير من الحياة الإسلامية، فكان لهذا التحوير ما نشاهده في الشعر العباسي من هذه الرقة وهذا الجمال اللذين لا نجدهما في الشعر الأموي والجاهلي مهما جهدنا في البحث. ورأيتم سعة في المجاز، وجمالًا في الاستعارة، وخلابة في التعبير، وعمقًا في الشعور في الشعر العباسي كلما حدَّث عن تلك الرياض الأنيقة والمناظر البهيجة، ثم إنكم أبصرتم هاته الرقة الحضرية المهلهلة وهاته العذوبة الساحرة التي تتفجر في شعر ابن خفاجة وأضرابه تفجر ينابيع الغياض وتلقي على الشعر الأندلسي حلة ضافية من

الطرافة والجِدَّة كلما تغنى بأودية الأندلس ورياضها حيث ترف ظلال الغصون الوارفة وتتغرد طيور الربيع.

الآن وقد سردت عليكم كل ذلك وعرفتم كل هذا، أريد أن أتلو على مسامعكم كلمتين لشاعرين من شعراء الغرب: أولاهما للامرتين وآخراهما لجيتي حتى تتبينوا الفرق بين الرنة العربية الساذجة البسيطة وبين الرنة الغربية العميقة الداوية، وتعرفوا كيف ينظر الأدب الغربي إلى الطبيعة بعد أن عرفتم نظرة الأدب العربي إليها، وتحكموا بأنفسكم على حظ نظرة أدبنا العربي من الخيال الشعري العميق.

أجل، فأنا سأتلو عليكم هاتين الكلمتين ثم أسألكم بحق ما تقدسون في هذا العالم؛ هل تجدون بين شعراء العربية هذه الروح القوية المضطرمة الشاعرة، هذه الروح التي تنظر إلى الطبيعة كلها ككائن حي يترنم بوحي السماء فيثير في حنايا النفوس ما تثيره أنَّات القيثارة في يد الفنان الماهر من هواجع الفكر وسواجي الشعور، هذه الروح اليقظة التي تحس بما في قلب الطبيعة من نبض خافق وحياة زاخرة تفيض على مظاهر الكون هذا الجمال الإلهي الوضيء، فإذا الحياة بأسرها صورة من صور الحق، وإذا العالم كله معبد لهذه الحياة. يقول لامرتين: «إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشرع وأنين الأمواج وغناء الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتشر ورقها على القبور، وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في كل هذا من التقى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان مجده!»

ويقول جيت: (أرى كل شيء حولي ينبت ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظللة مجانيها بالغابات الأنيقة وذلك النهر ينساب هادئًا بين نغمات القصب المهتزة، وتتراءى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء، وأسمع الأطيار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء، وخشارمة الذباب ترقص طربة مرحة على أشعة الشمس الأرجوانية الغاربة، وأرمق الأرض ببصري فأرى الأشنان يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتم ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء أشعر كأن قلبي

يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة، وكنت أشعر أني أقرب ما أكون إلى التألُّه بما يفيض في قلبي من الشعور والحس، ويخيل إليَّ أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرَّك في نفسي فتملؤها حياة جديدة.

… آه، كم تمنَّيْتُ في ذلك الزمن أن أقطع أجواز الفضاء على جناحَيْ ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل ذلك البحر الأعظم الذي لمَّا ينكشف سره للإنسان لأشرب من اللانهاية كأسًا دهاقًا تبسط القلوب وتنعش المشاعر!

وأشعر لحظة واحدة، على قصوري وضعفي، بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته وبذاته).

تلك كلمة لامرتين وجيتي، ولست بمستحلفكم مرة أخرى أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟ ولكني أقول كلمتي، وهي أن النظرة العربية إلى الطبيعة بسيطة إزاء هذه مهما بلغت من العمق والشعور، وأن تلك الكلمات الأخيرة التي قالها جيت هي الأغنية الخالدة التي ترددها النفوس الشاعرة في أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود. أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل هاته الإحساسات الشعرية العميقة لأنهم لم ينظروا إلى الطبيعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل وإنما كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل لا تزيد عن الإعجاب البسيط، ومثل هاته النظرة الفارغة لا ينتظر منها أن تشرق بالخيال الشعري الجميل لأن الخيال الشعري منشؤه الإحساس الملتهب والشعور العميق، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفِّق في قلب الطبيعة إلا إحساسًا بسيطًا ساذجًا خاليًا من يقظة الحس ونشوة الخيال، هو ذلك الإحساس الذي تشاهدون أثره في شعر البحتري وابن الرومي وأبي تمام وبعض شعراء آخرين.

هوامش

(١) الكوكب هنا بمعنى النبات الطويل، ومؤزر: ملتف.

(٢) كامل الطول.

(٣) الجثجاث والعرعار هما نوعان من النباتات البرية المزهرة.

(٤) المتعرف.

(٥) خلوه من الناس.

(٦) ممطورة غب المطر.

(٧) لينة التربة سهلتها غير رملية.

(٨) أي الأرض الندية وهي مؤنث الأثرى.

(٩) سحاب فيه سواد وبياض.

(١٠) وطف: أصل معناه وفرة شعر الأهداب والحاجبين، واستعمله هنا لتدلي السحابة إلى الأرض لأنها إذا تدلت ودنت من الأرض كان فيها مثل الوطف الذي يكون بوجه البعير. طبق: عم. تحرى: تصيب الحرى وهو فناء البيوت.

(١١) الود: وتد الخيمة. أشجذت: كفت. تعتكر: تشتد.

(١٢) ينعفر: ما يمس التراب لكثرة الماء.

(١٣) الشجراء: الأشجار. ريقها: أولها.

(١٤) الأكناف، الجوانب.

(١٥) راح: عاد وقت الرواح. تمريه: تستدره.

(١٦) ثج: صب. آذيه: موجه. خيم، وخفاف، ويسر: أسماء أماكن.

(١٧) أنفه: أوله. لاحق: ضامر. الأيطل: الخصر. محبوك: شديد الخلق. ممر: مفتول الأعضاء.

(١٨) لمستكف: يريد منه البرق. لواح: كثير الإيماض.

(١٩) لماح: كثير اللمعان.

(٢٠) مسف: قريب من الأرض. هيدبه: سحابه المتدلي إلى الأرض.

(٢١) ريط: جمع ريطة وهي الملحفة وما شابهها.

(٢٢) فاحص: طائر يفحِّص التراب عن الأرض ليتخذ فيها أفحوصًا.

(٢٣) شطب: اسم جبل. أقراب: نوع من عدو الخيل. أبلق: فرس مخطط بسواد وبياض. ينفي الخيل: يدفع الخيل. رماح: كثير الرفس برجله.

(٢٤) عشار: جمع عشر، وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر. جِلة: بكسر أولها بمعنى مسنة، يطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث. شُرُف، بضم أوله وثانيه: مسنة هرمة. شعث: مغبرَّة الشعر ملبدته. لهاميم: غزيرة اللبن. الإرشاح: هو أن يكون للناقة فصيل قوي على المشي.

(٢٥) هدلًا: مسترخية المشافر وهي شفاه البعير. تسيم: ترعى. القرقر: الأرض المطمئنة اللينة. ضاح: ظاهر منكشف.

(٢٦) دلاح: كثير الماء.

(٢٧) القيعان: جمع قاع وهو الأرض المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والهضاب. ممرعة: مخصبة. مرتفق: ثابت. طاح: منبسط من الأرض ممتد.

(٢٨) الحبى: السحاب الذي يعترض في الأفق.

(٢٩) النشاوى: السكارى. الكدرى: السحاب الرقيق. المزن: السحب البيض، يصف هذا السحاب بأن غيومه البيض الرقيقة باتت من سراها في الظلام تمشي مشية الشارب الثمل.

(٣٠) تحن: تتجاوب أصواتها بقصف الرعود. قطراته: نواحيه. النيب: النياق المسنة.

(٣١) الشماريخ: أصل معناها قمم الجبال واستعملها هنا في أعالي السحاب لضخامتها. الصبير: السحاب الذي فيه سواد وبياض.

(٣٢) يباري: يسابق. الحضرميات: التي تهب من ناحية حضرموت. الأرواق: جمع روق وهو الماء الصافي. القزع، قطع السحاب يسابق الرياح السريعة بمائه الصافي المتدفق من غيومه المتفرقة الشبيهة بالنوق التي تركت بمراعيها.

(٣٣) محض: خلاصة.

(٣٤) العرفج: نوع من النبات. النجدي: المنسوب إلى نجد. ذوباد: الذي بلي من قدمه. الحمض: كل ما كان مرًّا من النبات.

(٣٥) الجون: يطلق على الأبيض والأسود ومراده به هنا الأبيض. المداني: الذي ضيق عليه عقاله تقصيره. الموعث: السائر في الأرض اللينة المرملة. النقض: المهزول الضعيف.

(٣٦) تحدر: تسكب الدمع.

(٣٧) الجميم: ما يغطي الأرض من الأعشاب.

(٣٨) عصب: جمع عُصْبة بضم فسكون وهو العصابة. وتيمن وتمضر: تتشبه باليمانية والمضرية، وذلك أن العداوة بين اليمانية والمضرية قد كانت مستحكمة الحلقات حتى اتخذ كل منهما شعارًا، فكان شعار اليمانية الرايات الصفر والعمائم الصفر وكان شعار المضرية الرايات الحمر والعمائم الحمر.

(٣٩) معصفر: صابغ بالعصفر وهو صبغ أصفر.

(٤٠) الطلق: الضاحك أو الذي لا حر فيه ولا برد.

(٤١) ينث: يبث وينشر.

(٤٢) الوشي: الثوب المنقوش. المنمنم: المزخرف.

(٤٣) النشر: أول ما ينبت من النبات.

(٤٤) عبقر: مكان خرافي يزعم العرب أنه مسكن للجن ينسبون إليه ما يعجبون من جماله وإتقانه.

(٤٥) الصقال: البريق الذي يكون في السيف ونحوه بعد جلائه.

(٤٦) جاديها: زعفرانها.

(٤٧) صورًا: مائلة.

(٤٨) الريعان: أفضل الشيء وأوله، ويريد منه هنا وارف الظل لأنه أفضل الظلال.

(٤٩) ربعي: نسبة إلى الربيع. حثحث: حرك. الصنج: آلة من الآلات الوترية. مشرعًا: مشدود الأوتار.

(٥٠) توسوس: تصوت صوتًا خفيًّا.

(٥١) الجزع: منعطف الوادي.

(٥٢) النافجة: وعاء السمك. النيلوفر: نوع من النبات.

الخَيال الشعْري وَالمرْأة في رأي الأدَب العَربيِّ

لقد علمتم، كيف كان الأدب العربي ينظر إلى الطبيعة في عصوره المختلفة، وعرفتم مبلغ تطور هاته النظرة على اختلاف العصور والبيئات، وأدركتم حظ تلك النظرة من الخيال الشعري في جميع الأعصر العربية، وسمعتم قبل ذلك شيئًا من الأساطير العربية وعرفتم ما هي عليه من الخيال الشعري بالنسبة لغيرها من أساطير الأمم الأخرى. كل هذا قد علمتموه ولست أنوي إعادته ولكنني أريد أن أتناول الآن نوعًا آخر فيه ما في الطبيعة من سحر وفن، ومن قوة ودَعَة، لننظر كيف كان هو في رأي الأدب العربي، وهل نال نصيبًا من الخيال الشعري لم تَنَلْهُ الطبيعة ولا الأساطير أم كان حظه كحَظِّ أخويه؟ وهذا النوع هو (المرأة)، هو هذا اللغز الجميل الذي يفتننا بسحره ويختلبنا بجماله، فنتبعه مرغَمِين دون أن نستطيع له حلًّا، هذا اللغز الجميل هو الذي سنستمع إليه في فم الأدب العربي وأناشيده.

يقول الفلاسفة الأقدمون: (إن النفس البشرية قد خلقت من عنصر الحسن وجبلت من فن الجمال ...) وفي هذا الكلام شيء من الحق غير قليل، وإلا فبماذا تُعَلِّلُونَ هاته اللذة السامية التي تشعر بها النفوس جميعًا كلما شاهدت مرأى جميلًا من مرائي هذا الكون البهيج؟ وبماذا تفسرون هذا الشغف بالجمال الذي قد يصبح في بعض النفوس تعطشًا دائمًا وحنينًا لا يرتوي، وقد يسمو في بعض النفوس الشاعرة إلى أفق أعلى، فإذا هو غيبوبة كلية في هذا الكون البديع تستغرق المشاعر وتطغى على كل الميول ...

تلك هي النفس الإنسانية: فلذة خالدة من هذا الجمال العبقري الذي يتفجر من قلب الحياة تَفَجُّرَ العطر من الوردة اليانعة، فيشمل كل ما في هذا الملكوت من حي وميت، وينسجم على قسمات هذا العالم ووجوه هذا الوجود ...

تلك هي النفس الإنسانية: فلذة خالدة، فصلتها يد القدر عن جمال الحياة؛ ولذلك فهي أبدًا تحن إليه في أي مظهر كان وفي أى لون بدَا، فإن فقدته ظلت تبحث عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تظفر به.

... أما العرب فقد حُرِمُوا كما قلنا من قبل من هذا الجمال السماوي الذي يجد عنده القلب لذة الحس وسعادة الشعور، ولم يكن لديهم من مظاهر الجمال على اختلاف فنونه غير فن واحد هو: «المرأة»، ففي المرأة وحدها استطاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السحري المتفجر من قلب الحياة ... وفي المرأة وحدها ظفروا بتلك الكأس الروية التي تطفئ ظمأ القلب إلى الحسن وغلة النفس إلى الجمال، فتَغَنَّوْا بمحاسن المرأة وشَبَّبُوا بمفاتنها ما شاء لهم الشعر والعاطفة.

وتلك جِبِلَّةُ الإنسان في العالم كله منذ القدم، فالمرأة هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبة، والمرأة هي الطيف السماوي الذي هبط الأرض ليُؤَجِّجَ نيران الشباب ويُعَلِّمَ البشرية طهارة النفس وجمال الحنان، تلك هي المرأة في رأي البشرية جمعاء إلا قلوبًا لم تعرف نعمة الحب ولا سمعت نشيد الجمال فظلت مغلقة موصدة كأفئدة الصخور ... ولكن العرب تجاوزوا في التغني بالمرأة كل حد حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر وحتى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان لا يبدأون الشعر إلا بنجواها، ولكن لا تتعجلوا فتحسَبوا أنهم أَجَلُّوا المرأة ونظروا إليها نظرة سامية فيها طهر العبادة وفيها معنى التقديس والإجلال كما كان ينظر قدماء اليونان إلى آلهة الشعر حينما يناجونها في مستهل القصائد. كلا! فإن شيئًا من هذا لم يكن، لأن الشاعر العربي ما كان يُبَوِّئُ المرأة المنزلة السامية وذلك المقام الجميل إلا ليتحدث عن ملهاته الساحرة التي أَلْفَى عندها متعة الجسد ومنهل الشهوات ... أو لكي يفاخر رفاقه من أبناء البادية بأنه قدير على تَصَبِّي قلوب النساء والعبث بهن ليس غير ...!

أجل، فإن نظرة الأدب العربي إلى المرأة نظرة دنيئة سافلة منحطة إلى أقصى قرار من المادة، لا تفهم من المرأة إلا أنها جسد يُشتهى ومتعة من متع العيش الدنيء ...

أما تلك النظرة السامية التي يزدوج فيها الحب بالإجلال والشغف بالعبادة، أما تلك النظرة الروحية العميقة التي نجدها عند الشعراء الآريين فإنها منعدمة بتاتًا أو كالمنعدمة في الأدب العربي كله لا أستثني إلا الأندر الأقل على الرغم من أن أكثره في المرأة.

لم يعرف العرب ولا الشاعر العربي تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء يلتمس لديها من الوحي والإلهام ما تضن به ينابيع الوجود ... ولم

يحاول الشاعر العربي أن يحس بما وراء الجسد، من روح جميلة ساحرة، تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة وهما أقدس ما في هذا الوجود، ولا بذلك القلب النقي الذي يزخر بأسمى عواطف الحياة وأشعارها، وأجمل أحلام هذا العالم الكبير، ولا شَعَر بما بين هاته الطبيعة الكبرى وبين المرأة من اتصال وثيق، حتى كأنها قلبها الإنساني، الذي يحمل بسمة الفجر، ويأس الظلام، ذلك شَأْوٌ لم تُحلق فيه أجنحة الشاعر العربي ولا نالته، بل ولم يطمح إليه بصره الذي أَلِفَ مَغَاوِرَهُ الأولى وكهوفه الضيقة ... بل إن الشاعر العربي لم يرفع بصره إلى ما هو أدنى من ذلك بكثير، فهو إذا حَدَّث عن جمال المرأة لم يتحدث عنه كفَنٍّ مستقل متجرد عن هاته المظاهر المادية التي تتصل بالخصر والردف ونحوهما، وإنما تحدث عن هذا الجمال المتهدل (الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم واللحم) كأنما الجمال جسد يُجس ومادة تُمس، أما أن يتحدث عنه كما يقول تاغور: (أمسكت يديها وضممتها إلى صدري، حاولت أن أملأ بحسنها ذراعي، وأن أنتهب بقُبَلي ابتساماتها العذبة، وأن أترشف بعيني وميض أجفانها، ولكن، أواه! أين هي؟ من يستطيع أن يسلب من السماء زرقتها؟ حاولت أن أقبض على الجمال ولكنه غادرني غير تارك بين يدي سوى الجسد، فانثنيت خاسر النفس كَلِيلها، كيف يقدر الجسم أن يلمس الزهرة التي لا يقدر على لمسها غير الروح؟) أما أن يتحدث عن جمال المرأة، بمثل هذا الحديث، فذلك ما لا يستطيعه الشاعر العربي بحال، وذلك ما لا يظفر به الباحث في الشعر العربي كله، لا أستثني أحدًا غير ابن الرومي ومن لَفَّ لفه وهو نفر قليل، فإن ابن الرومي تحدث عن جمال المرأة كشيء مستقل عن الجسد مصدره النفس الخالدة، يقول:

ليت شعري — إذا أدام إليها	كرة الطرف مبدئ ومعيد —
أهي شيء لا تسأم العين منه	أم لها كل ساعة تجديد؟
بل هي العيش، لا يزال متى استحـ	ـدث يبدي غرائبًا ويفيد

فالشاعر العربي لا يتكلم عَمَّا وراء جسد المرأة من تلك المعاني العميقة السامية، ولكنه مُجِيدٌ كل الإجادة إن أراد أن يحدث عن قدها الأهيف المشوق وعن طرفها اللامع الوسنان وعن وجهها المتورِّد المنضور وعَمَّا إلى ذلك من تلك الأوصاف المادية الملقاة أمام كل رائح وغادٍ والتي يحس بها كل الناس إحساسًا متوازيًا لا تظهر معه مَزِيَّةٌ للشاعر على غيره في الالتفاف إليه إلا في رصانة التعبير، وجمال الديباجة وخلابة الأسلوب ... ولكن ليت شعري! هل تلك هي وظيفة الشاعر وغايته من هذه الحياة؟ إذن يا خيبة الشعر ويا سخف

الحياة! أجل يا خيبة الشعر وإن كان كثير من الناس لهم عقول يفهمون بها ثم لا يزالون يحسبون أن رسالة الشاعر ألفاظ منمقة نضيدة، وعبارات مرصعة، وكلام مرصوص!

هذه هي النظرة الشائعة في الأدب العربي كله، والتي يتساوى فيها جميع شعراء العربية على اختلاف عصورهم، وتبايُنِ طبقاتهم، وتفاوُتِ أوساطهم، سواء في ذلك عَفُّهُم وفاجرهم، وأولهم وآخرهم، وقد يكون من الغريب أن بعضًا من هؤلاء الشعراء يؤمنون بالحب إيمانًا ساميًا، ويضمرون عنه في نفوسهم أبرأ المعاني وأنقاها ما داموا خالين إلى أنفسهم أو إلى من يحبون، حتى إذا ما أرادوا التحدُّث عن المرأة لم يتحدثوا إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من تلك الأوصاف الجسدية السافلة، ولكن لو تَعَمَّقَ الباحث في فهم الروح العربية، لعلم أن ذلك ليس من الغرابة في شيء؛ لأن من طبيعة هذه الروح أن لا تحيط بغير الظاهر المحسوس، على ما سأبنيه في الفصل الخاص بالروح العربية.

وإنما الذي يستدعي البحث، هو أن النظرة التي نظر بها الأدب العربي إلى المرأة، قد ظلت بسيطة، لم تكتحل بأضواء النجوم، ولم تعرف غير الأفق الأول العهيد، ولم تتأثر بما اعتور الحياة الإسلامية من جزر ومد، ومن نور وظلمة، ومن صخب وسكون. ورأيي في بقائها زيادة على الأسباب العامة التي ستأتي عليها في الكلام على الروح العربية هو أن الذي عمل على بقائها دون أدنى تطور أو تحور هو:

أولًا: هاته الفكرة الجائرة، التي كانت تستحوذ على أدمغة العالم العربي كله، من أن المرأة مَثَلُ الغدر واللؤم، وخساسة الطبع، وحطة النفس، وخبث الضمير، فإن الفكر الذي يعتقد مثل هذا في المرأة لا يمكنه بحال أن يبصر ما وراء جسدها، من حياة عذبة ساحرة وعالم شعري جميل … وهل يبصر مثل هذا العالم المشرق المنير من يرى أنه منبع الإثم، ومستقر الرذيلة الخائنة؟ ويقول مع المتنبي:

ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام

ثانيًا: هو أن المرأة لم تنل في جميع الأعصر العربية، قسطًا من الحرية الحقة، تتمكن معه من إظهار ما لها من مواهب وملكات تجبر الرجل على أن يحترمها ويبدل فيها رأيه، فيطلع على ما خلف الجسد من لج زاخر وبحر عميق، تختلف عليه الأمساء والأصباح، والأضواء والظلمات. ولا تَغُرَّنُكُم تلك الحرية الموهوبة التي تسمعون عنها فإنها ليست هي الحرية الحقة التي أتحدث عنها والتي كان يمكنها — لو وقعت —

أن تحول هذه النظرة القاسية إلى ما هو أعف وأجمل. ذلك لأن الحرية التي وقعت في تلك العصور هي ضرب من الحرية متهتك خليع، يعبث بالفضيلة ويسخر بكل شيء ... وما أجدره أن يسمى انحطاطًا أخلاقيًّا، من أن يسمى حرية، فيدنس هاته الكلمة الإلهية الطاهرة. ثم لأن الذي تمتع بهاته الحرية، هو قسم من النساء، لا حظ له من كرامة المرأة، بكل ما فيها من عفة سامية وطهر جميل، هو قسم من الإماء المتجنيات على الرجال، المتهافتات على اللذة، المتهالكات على الفجور، تهالكًا يأباه الدين والعقل، وينكره الحياء الإنساني العريق، هو هذا الضرب الذي يتحدث عنه أبو نواس، والخليع، ومن كان على شاكلتهما فسقًا ودعارة، وهو هذا الضرب الذي يجد عنده خلعاء الأندلس ومجانها ما يغريهم على تعاطي اللذة ومتابعة اللهو. ولا أحسب أن مثل هذا اللون من الحرية، وهذا الضرب من النساء، مما يدفع إلى إبدال تلك النظرة بما هو أرق وأعذب، وإنما هو يؤيدها بل ربما زادها قساوة وشدة، وإلا فما الذي جعل هذا الأدب الفاجر الخليع، يتفشى تفشيًا منكرًا في الأدب العباسي وفي الأدب الأندلسي، لولا مثل هؤلاء النساء.

وإذن فنظر الآداب العربية إلى المرأة كنظرها إلى الطبيعة أو أدنى، لا سمو فيه ولا خيال. وإنما هو مادي محض لا يكاد يرى فرقًا بين المرأة والرداء وكأس من الخمر، فالمرأة تُتخذ لإشباع شهوات الجسد والرداء يقي الجسم هاجرة الصيف، ويدفع عنه عادية الشتاء، وكأس الخمر يتلهى بها في آناء الفراغ! بل ربما سمت نظرة بعض الشعراء إلى الخمر، حين لم تسمُ نظرته إلى المرأة، ولا تحسبوني مغاليًا أو مغرقًا، فإن الشعر العربي بين أيدينا شاهد على ما أقول، هاكم امرأ القيس فهو يقول:

ويا رُبَّ يوم قد (لهوت) وليلة   بآنسة كأنها خط تمثال

ويقول:

كأني لم أركب جوادًا للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال
ولم أسبأ الرزق الروي، ولم أقل   لخيلي (كري كرة!) بعد إجفال

ويقول:

وبيضة خدر، لا يرام خباؤها (تمتعت)، من (لهو) بها غير معجل

فماذا رأيتم عنده؟ هل زاد على أن جعل المرأة (متعة ولهوًا)، وسوَّى بينها وبين الفرس السابق والخمر العتيق!؟

وها كم ما يقوله طرفة بن العبد شاعر الشباب المرح:

ولولا ثلاث، هن من عيشة الفتى
وجدك، لم أحفل متى قام عودي[١]
فمنهن: سبق العاذلات بشربة،
كميت، متى ما تعل بالماء تزبد[٢]
وكرى — إذا نادى المضاف مجنبًا —
كسيد الغضا، نبهته، المتورد[٣]
وتقصير يوم الدجن — والدجن معجب —
ببهكنة، تحت الخباء الممدد[٤]

فهل أسمعكم خيرًا مما أسمعكم امرؤ القيس؟ وهل وجدتم عند هاته النفس الفتية الملتذة المتحفظة غير ما لقيتم عند تلك النفس الخليعة الماجنة الفاجرة؟ بل ها كم ما يقول أوس ابن حجر:

وهل (لهوت) بمثل الرئم، آنسة تُصبي الحليم، عروب، غير مكلاح[٥]

وهاكم ما يقول عبد الله بن عجلان النهدي قتيل الصبابة:

وحقة مسك، من نساء، لبستها شبابي، وكأس باكرتني شمولها[٦]
جديدة سربال الشباب، كأنها سقية بردي، نمتها غيولها[٧]

فما رأيتم؟ هل ألفيتم عند هذين ما هو أجمل مما لقيتم عند طرفة وامرئ القيس قبله؟ بل تأملوا مِمَّا يقوله أبو نواس في شباب المجد الإسلامي، وعنفوان الحضارة العباسية؟ ثم نبئوني ماذا رأيتم؟ إنه يهتف قائلًا:

(أُلْهُ) بالبيض الملاح وبـقِـيـنـات، وراح
لا يـصـدنـك لاح هو عن سكرك صاح

وهكذا ينطلق يقول كلما حدثه شيطانه عن المرأة.
ثم استمعوا لأبي تمام كيف يقول:

... من كل ممكورة، ذاب النعيم لها ذوب الغمام: فمنهلٌّ ومنسكب[٨]
كانت لنا (ملعبًا)، (نلهو) (بزخرفه) وقد ينفِّس عن جد الفتى اللعب[٩]

ثم استمعوا لما يقوله البحتري من بعده:

قد أطرق الغادة، الهيفاء، مقتدرًا على الشباب، فتصبيني وأصبيها[١٠]
في ليلة، ما ينال الصبح آخرها علقت بالراح، أسقاها وأسقيها
عاطيتها غضة الأطراف، مرهفة شربت من يدها خمرًا، ومِن فِيها

وإلى هنا أقف خوف الإطالة، وأسألكم: هل رأيتم من فرق بين ما قاله امرؤ القيس وما قاله البحتري، وبين ما قاله أولئك وما قاله هؤلاء رغمًا عن تغيُّر الزمن وتباعد شُقَّةِ العصور، غير هاته الرقة اللفظية وهاته النعومة في التعبير اللتين لا تعهدهما البداوة الخشنة الجافية.

وإذا رأيتم في أي منزلة ينزل المرأة العربية، وبأي تعبير يعبرون عنها، فهلموا نستمع إليهم كيف يصفونها في أشعارهم وإلى أي ناحية منها يعرضون.
هذا امرؤ القيس يصف محبوبته البدوية فيقول:

مهفهفة، بيضاء، غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل[١١]
تصد، وتبدي عن أسيل، وتتقي بناظرة من وحش (وجرة) مُطْفِل[١٢]

وجِيد، كجِيد الرِّيم، ليس بفاحش إذا هي نصته، ولا بمعطل[١٣]
وفرع، يغشي المتن، أسود، فاحم أثيث، كقنو النخلة المتعثكل[١٤]
غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل
وكشح لطيف، كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذلل[١٥]
وتضحي، فتيت المسك تحت فراشها نؤوم الضحى، لم تنتطق عن تفضل[١٦]
إلى مثلها، يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرَّت بين درع ومجول[١٧]

وهذا الأعشى يتغنى بعشيقته فيقول:

غراء، فرعاء، مصقول عوارضها تمشي الهوينا، كما يمشي الوجي الوجل[١٨]
كأن مِشيتها، في بيت جارتها مر السحابة: لا ريث، ولا عجل
يكاد يصرعها — لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها — الكسل
هركولة، فنق، درم مرافقها كأن أخمصها بالشوق منتعل[١٩]
إذا تقوم، يضوع المسك أصورة[٢٠] والزنبق الورد في أردانها شمل
ما روضة، من رياض الحزن، معشبة خضراء، جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت، مكتهل[٢١]
يومًا بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

ويقول طرفة:

وفي الحي أحوى، ينفض المرد، شادن مظاهر سمطَيْ لؤلؤ، وزبرجد[٢٢]
خذول، تراعي ربربًا بخميلة تناول أطراف البرير، وترتدي[٢٣]
وتبسم عن ألمى، كان منورًا تخلل حر الرمل، دعص له ندي[٢٤]
سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف ولم تكدم عليه بأثمد[٢٥]
ووجه، كأن الشمس ألقت رداءها عليه، نقي اللون، لم يتخدد

ويقول كعب بن زهير:

وما سعاد غداة البين — إذ رحلوا — إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة، عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم — إذا ابتسمت — كأنه منهل بالراح معلول [٢٦]
شجت بذي شبم، من ماء محنية صافٍ بأبطح، أضحى وهو مشملول[٢٧]
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب غادية بيض يعاليل[٢٨]

وعلى مثل هاته السنة يذهب النابغة، وعنترة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وأوس بن حجر، والمرقش، وزهير، وغير هؤلاء من شعراء الجاهلية، لا يختلفون إلا في كيفية التعبير عن هاته المعاني — وربما اتفقوا فيها — أو في قلة الأوصاف وكثرتها. ولو شئت أن أستعرض كل ما قاله شعراء الجاهلية والإسلام في هذا الصدد وأتقصاهم واحدًا واحدًا، أو عبقريًّا عبقريًّا، لاضطررت إلى تأليف مجلد ضخم أتعرف فيه أقوالهم وأبين مبلغ ما فيها من التفاوت وآثار العصور. وإن كنت على ثقة من أنهم في هذا الفن سواء، أو ما هو منه بسبيل. ولكنني لم أُرِدْ هذا وإنما أردت أن آخذ من شعر كل عصر شيئًا لنوابغ شعرائه، حتى يتضح هذا الرأي الذي أسلفت الحديث عنه.

وإذن فلنستمع إلى ابن أبي ربيعة ومن معه لننظر هل مِن فارِقٍ بينهم وبين من قبلهم من شعراء الجاهلية. يقول ابن أبي ربيعة:

خود، تضيء ظلام البيت صورتها كما يضيء ظلام الحندس القمر[٢٩]
مجدُولة الخلق، لم توضع مناكبها ملء العناق، ألوف، جيبها عطر[٣٠]
ممكورة الساق، مقصوم خلاخلها فمشبع نشب منها، ومنكسر
هيفاء، لفاء، مصقول عوارضها تكاد من ثقل الأرداف تنبتر[٣١]
تفتر عن واضح الأنياب متسق عذب المقبَّل، مصقول، له أشر[٣٢]
كالمسك شيب بذوب النحل، يخلطه ثلج بصهباء مما عتقت، (جدر)

لعلكم تقولون: إنه فاسق ولا يأخذ الفاسق من المرأة إلا مثل هاته المواضع التي هي أقرب إلى حسه وأدنى إلى طوية نفسه. فماذا تصنعون بالمجنون وهو ذلك العاشق البريء الذي لم تأخذ عليه ريبة قط إذ يقول عن ليلاه:

ومن أين للشمس المنيرة بالضحى — بمكحولة العينين في طرفها فتر[٣٣]
وأنَّى لها من دل ليلى، إذا انثنت — بعين مهاة الرمل قد مسها الذعر
تبسم ليلى عن ثنايا، كأنها — أقاح، بجرعاء (المراصين) أو دُرُّ
منعمة، لو باشر الذر جلدها — لأثر منها في ترائبها الذر
إذا أقبلت تمشي — تقارب خطوها — إلى الأقرب الأدنى — تقسمها البهر[٣٤]

أفلا ترون أنه لم يخالف ابن أبي ربيعة في كبيرة ولا صغيرة مع اختلاف بين الاثنين في المنزع والهوية وفي الطبع والحياة؟ لعلكم تقولون: إنه مشكوك في وجوده، وقد جزم الدكتور طه حسين بأنه شخصية خيالية. وما يدريك لعل قائل هاته القطعة شاعر قريب الشبه بابن أبي ربيعة في المشرب والروح. إذًا فماذا تصنعون بجميل وهو شاعر لم يَشُكَّ أحد في وجوده ولا أقدم بشر على عَدِّهِ من أبطال الأساطير، وهو من تعرفون: عفة نفس وطهارة ذيل وحبًّا مكينًا، وحسب ذلك دليلًا ما ذكره صاحب الأغاني في الجزء الثامن من أنه زار بثينة في خدرها فبلغ النبأ أباها وأخاها فتقلدَا سلاحهما واعتزما قتله حتى إذا وصلا الخدر واستمعا لما يدور بين العاشقين من حديث طاهر وقول بريء وَلَّيَا من حيث أتيا دون أن يسفكا ذلك الدم الطاهر أو يزهقا تلك الروح النبيلة، ما رأيكم في شاعر هذا حظه من طهارة النفس وشعره يقول عن بثينة:

قناة من المران، ما فوق حقوها — وما تحته منها نقي يتقصف[٣٥]
لها مقلتا ريم، وجِيد جداية — وكشح، كطَيِّ السابرية، أهيف[٣٦]

ويقول أيضًا:

غراء، مبسام، كأن حديثها — در تحدَّرَ نظمه، منشور
مخطوطة الساقين، مضمرة الحشا — ريا الروادف، خلفها ممكور[٣٧]
لا حسنها حسن، ولا كدلالها — دل ولا كوقارها توقير

بل ماذا يكون قولكم لو انتقلنا إلى العصر العباسي فإذا هو كالعصر الأموي والجاهلي دون أي تفاوت أو اختلاف؟ انظروا ما يقول أبو نواس:

سربلها الدل ثوب بهجته   أزرها الشكل ثم رداها[٣٨]
للدعص من ردفها تراكمه   وللقضيب الرطيب أعلاها
فالسحر والغنج في محاجرها   والحسن وقف على محياها

ثم انظروا ما يقوله أبو تمام من بعده:

إن في خيمهم لمفعمة الحجـ   ـلين، والمتن متن خطوط وريق[٣٩]
وهي لا عقد ودها ساعة البيـ   ـن ولا عقد خصرها بوثيق
وكان الجريال شيب بماء الـ   ـورد في خدها، وماء العقيق[٤٠]
وهي كالظبية النوار، ولكن   ربما أمكنت جناة السحوق[٤١]

وما يقوله أيضًا:

بيضاء، يصرعها الصبا من نعمة   خود، كخوط البانة الأملود[٤٢]
وحشية، ترمي القلوب إذا اغتدت   وَسْنَى، فما تصطاد غير الصِّيد

ثم اسمعوا ما يقوله المتنبي:

كل خمصانة، أرق من الخمـ   ـر، بقلب أقسى من الجلمود[٤٣]
ذات فرع، كأنما ضرب العنـ   ـبر، فيه بماء ورد وعود[٤٤]
حالك كالغداف، جثل، دجو   جي، أثيث، جعد بلا تجعيد[٤٥]
تحمل المسك من غدائرها الـ   ـريح، وتفتر عن شتيت برود

ثم اسمعوا ما يقوله البحتري:

بيضاء، أوقد خديها الصبا، وسقا   أجفانها من مدام الراح ساقيها
في حمرة الورد شكل من تَلَهُّبِهَا   ولقضيب نصيب من تثنيها

ويقول مهيار الديلمي:

سقى بالحمى الأعين النابلات   من دم أحشاي ما تشرب
وحيا الحيا أوجهًا لا تغش   لجين الجمال بها مذهب
وما نطفة حضنتها السماء   بأرعن مرقاه مستصعب[٤٦]
ولا مسكة طاف عَطَّارها   (بدارين) ينخل ما يجلب[٤٧]
بأطيب من فم ذات الوشاح   سحورًا، بلى، فمها أطيب

فهل رأيتم أيها السادة من تطور بين العصر العباسي والعصرين قبله من حيث نظر الشعر إلى المرأة ومنزلتها منه رغمًا عن الاختلاف الشديد بين المدنية والفكر والعوائد في هاته العصور الثلاثة؟ أليست المرأة التي يتحدث عنها امرؤ القيس وطرفة وعمر بن أبي ربيعة هي نفس المرأة التي يتحدث عنها الحكمي والبحتري وأبو تمام؟ وأليس الحديث هو عين الحديث إلا رقة في المعنى وطلاوة في اللفظ وتنويقًا في العبارة خلا منها الأدب الأموي والجاهلي قبله وقضت بها المدنية العباسية من بعد.

وإذن فلنأخذ العصر الأندلسي لننظر كيف كان مقام المرأة في الشعر، وكيف كان حظ الحديث عنها من السمو والخيال، ولننتقل من تلك البيئة الشرقية إلى هاته البيئة الغربية لنعرف هل أَثَّرَتْ عظمة الطبيعة واختلاف التربية والوسط والمناخ على النظرة الشعرية إلى المرأة، هذا ابن خفاجة يقول:

فتق الشباب بوجنتيها وردة   في فرع أسحلة، تميد شبابا[٤٨]
وضحت سوالف جيدها سوسانة   وتوردت أطرافها عنابا[٤٩]
بيضاء، فاض الحسن ماء فوقها   وطفا به الدر النفيس حبابا

ويقول:

هي الظبي، طرفًا أحورًا، وملاحظًا   مراضًا، وجِيدًا أتلعًا، ونفارًا
أفاضت على عطف القضيب ملاءة   ولفَّت على ظهر الكثيب إزارا

وهذا ابن خاتمة يقول:

دماء فوق خدك أم خلوق؟ وريق ما بثغرك أم رحيق؟
وما ابتسمت ثغور أم أقاح ويكنفها شفاه أم شقيق؟
وتلك سناة قوم ما تعاطت جفونك؟ أم هي الخمر العتيق؟
لقد أعدت معاطفك انثناء وقلبي سكرة ما أن يفيق
جمالك خمرتي، وهواك راحي وكاسي مقلتي، فمتى أفيق

وهذا ابن سهيل يقول:

ما رأينا قط ثغرًا. نضده أقحوان، عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربدهْ وهو من سكرته ما إن يفيق
فاحم اللمة، معسول اللمى ساحر الغنج، شهي اللعس
وجهه يتلو (الضحى) مبتسمًا وهو من أعراضه في «عبس»

... والآن ما رأيكم بعد كل هذا؟ هل وجدتم بين من تلوت عليكم أشعارهم — وهم نوابغ الشعر وأبطاله — واحدًا يعبد في محبوبته ذلك الجمال الروحي المجسد، لا تلك المرأة التي تضم وتشم ثم تتصوح وتذوي بين الأحضان الفانية كما يقول لامرتين؟ أم هل وجدتم من يحاول أن يتكلم بقلبه أو بعقله عَمَّا وراء جسد المرأة من شعور سماوي رقيق، وعاطفة ندية ساجية وأحلام عذبة مستحبة تتألَّق سناء وبهجة وتشمل العالم كله بالعطف والحنان، فيتَّخذ من خياله أجنحة نارية ترفرف في ذلك العالم الشعري الذي تتراقص من حوله أشعة الطفل وضباب الصباح؟ ... هل سمعتم بين هؤلاء وغيرهم من يتغنى بحنو المرأة وحبها كما يتغنى الطائر الغرد؟ هل سمعتم من يتحدث عن المرأة وهي معبد الحب في هذا الوجود كما يتحدث الخاشع المتعبد عن بيت من بيوت الله؟ هل سمعتم بين هؤلاء وغيرهم من يتحدث عن قلب (المرأة) بمثل هذا الحديث الجميل الذي تسمعونه من جبران في أجنحته المتكسرة ... (إن قلب المرأة لا يتغير مع الزمن، ولا يتحول مع الفصول، قلب المرأة ينازع طويلًا ولكنه لا يموت، قلب المرأة يشابه البَرِّيَّة التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه، فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنَّة، ويظل فيها الربيع ربيعًا، والخريف خريفًا إلى آخر الدهور ...)؟

كلا! فأنتم لم تسمعوا مثل هذا الحديث ولن تسمعوه ممن سلف من شعرائنا لأن مثل هذا الحديث لا يقدم عليه إلا من أوتي شعورًا جميلًا مشرقًا وخيالًا قويًّا متمردًا لا يتهيب الأعماق المظلمة ولا يقنع بالظواهر البادية. أما الشاعر العربي فلم يُؤْتَ مثل هذا الإحساس ولا هذا الخيال على ما سُأَبَيِّنُهُ في الفصل الخاص بالروح العربية، وإنما كان له إحساس قاصر وخيال محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع فيما وراء المرئيات. وإذن فما الذي يدعوه لأن يفكر في قلب المرأة وهو مطمئن إلى أنه منبع الغدر والخيانة. وما الذي يدفعه إلى تفهم روحها وله من جسدها مرتاد مخصب لشعره ونشيده …؟

وبعد كل هذا فما الذي أخذناه؟ أخذنا أن المرأة في الأدب العربي لم تظفر بنصيب من الخيال الشعري ولو كان يسيرًا لأن النظرة التي نظر إليها بها كانت مادية محضة لا عمق فيها ولا ضياء، سواء في ذلك جميع العصور والأجيال. وغاية ما يمكن أن يؤخذ من الفرق أن الشاعر في العصرين الجاهلي والأموي قد كان صادقًا في ميله إلى المرأة وشغفه وإن لم يتحدث عنها إلا من الوجهة الجسدية، وأما الشاعر العباسي والأندلسي فقد قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجولة فيه فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذبًا لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى بالرغم عن أنه جميل الرنة، خلاب النسق، وإن كان السمع لا يعدم من حين لآخر صرخة ثائرة من صرخات الحب تتجاوب في ذلك السكوت الشامل العميق.

ولهذا التخالف علته المعقولة فإن المدنية ما تَفَشَّتْ إلا وتَفَشَّى معها الفسق والفجور وتوافرت أسباب اللهو والمجون فخمدت تلك الشعلة الكامنة في نفس الرجل. وما الذي يؤججها وفي كل حين تتلقاه بنات الهوى ولدات الدلال، أما البداوة فهي في مأمن من هذا الخطر الذي يقضي على جذوة الرجولة في الرجال، ولذلك فهي باقية يثيرها الحب ويؤججها الغرام.

هوامش

(١) عوَّد: جمع عائد وهو الذي يزور المريض في مرضه.

(٢) كميت: فيها سواد وحمرة.

(٣) مجنبًا: منحنيًا من الهزال. المتورد، الوارد.

(٤) البهكنة: الشابة الغضة الشباب.

(٥) الرئم: الغزال الأبيض. عروب: تبهج زوجها. مكلاح: مكشرة عابسة.

(٦) شمولها: خمرتها.

(٧) سقية: قصبة من البردي وهو نوع من النبات كالقصب. نمتها: أنمتها. غيولها: الأودية التي فيها المياه.

(٨) ممكورة: مملوءة الساق.

(٩) بزخرفه: بزينته. ينفس: يروح ويخفف.

(١٠) أطرق الغادة: أزورها ليلًا.

(١١) مفاضة: مسترخية البطن. السجنجل: المرآة.

(١٢) مطفل: يتبعه طفله. يقول إن لها نظرة عذبة ساحرة كنظرة المهاة إلى خشفها الصغير.

(١٣) نصته: رفعته.

(١٤) القنو: هو للنخل بمثابة العنقود للعنب.

(١٥) الكشح: الخصر. الجديل: زمام الناقة. السقي: البردي وهو نبات شبيه بالقصب. المذلل: المحروث.

(١٦) التفضل: شد وسطها بفاضل ثوبها للشغل كناية عن أنها مترفة لا تعمل.

(١٧) اسبكرت: استقامت ماشية. المجول: درع صغير.

(١٨) غراء: بيضاء حسنة. فرعاء: طويلة الشعر. العوارض: الأسنان التي بعد الثنايا. الوجي: رقيق القدم من المشي بلا نعل.

(١٩) هركولة: جميلة الجسم والتكوين والمشية. فنق: منعمة. درم: ممتلئة. أخمصها: باطن القدم.

(٢٠) أصورة: جمع صوار وهو وعاء المسك. يقول إنها حين تنهض يتضوع المسك منها كما يتضوع من وعائه. الورد: الأحمر. شمل: شامل.

(٢١) كوكب: ما طال من النبات. شرق: يانع. زاهر: مؤزر: ملتف بما أحاط به من نبات كما يلتف بالإزار. مكتهل: تام الطول مزهر الفنن.

(٢٢) الأحوى: الأسمر. المرد: ثمر الأراك. الشادن: ولد الظبية إذا ما بدأ يشتد. المظاهر: الذي يجعل واحدًا فوق آخر.

(٢٣) الخذول: الظبي المتخلف عن القطيع. الربرب: قطيع الظباء. البرير: ما قارب النضوج من ثمر الأراك. ترتدي: تدخل بين أغصانه حتى تصبح لها كالرداء.

(٢٤) الألمى، الثغر في شفتيه سمرة. المنور: يريد منه الأقحوان. حر الرمل: نقيه. الدعص: الكثيب الصغير من الرمل.

(٢٥) إياة الشمس: شعاعها وهذا المعنى مبني على خرافة كان العرب يؤمنون بها، أتينا عليها في «الخيال الشعر والأساطير». اللثات: مواضع الأسنان. أسف: ذر عليه الأثمد الكحل.

(٢٦) العوارض: ما يلي الثنايا من الأسنان. الظلم: البريق. المعلول: الممزوج.

(٢٧) شجت: هزجت. المحنية: منعطف الوادي. أبطح: مسيل المياه فيه رمل وحصى دقيق. المشمول: البارد.

(٢٨) أفرطه: ملأ حتى فاض. الغادية: السحابة. اليعاليل: فواقيع الماء ونفاحاته.

(٢٩) الخود: الصبية.

(٣٠) مجدولة الخلق: مفتولة غير مسترخية ولا متهدلة.

(٣١) اللفاء: ضخمة الفخذين. تنبتر: تنقطع.

(٣٢) أشر: بضم ففتح، تحزيز في الأسنان.

(٣٣) فتر: فتور.

(٣٤) البهر: انقطاع النفس من الإعياء والكلال.

(٣٥) المران: شجر تتخذ منه الرماح اللدنة الناعمة. حقوها: خصرها.

(٣٦) جداية: غزالة. السابرية: نوع من الثياب.

(٣٧) مخطوطة.

(٣٨) الشكل: الدلال.

(٣٩) الحجلان: الخلخالان. خوط: غصن. وريق: مورق.

(٤٠) الجريال: الخمر.

(٤١) النوار: النافرة.

(٤٢) الأملود: الناعم اللين.

(٤٣) الخمصانة: الهيفاء.

(٤٤) ضرب: خلط.

(٤٥) جثل: وافر مسود. دجوجي: حالك كالليل. جعد: ذو تجاعيد وتثان.

(٤٦) الأرعن: يريد الجبل وإن كنت لم أعثر على تسمية الجبل بهذا اللفظ وإنما أعرف أنه يسمى الرعن.

(٤٧) ينخل: يختار.

(٤٨) أسحلة: واحدة أسحل وهو نوع من الشجر يستاك به كالأراك.

(٤٩) سوالف: جمع سالف وهي مقدم العنق تحت الأذن.

الخيال الشعري والقصَّة في الأدب العربي

قد لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئًا من القصص الرائع الفخم الجميل وأن يجد في ذلك القصص خيالًا عذبًا مشرقًا بالروح والحياة، هذا لا سبيل لإنكاره فيما أظن، وهل ينكر هذا وفي العربية مثل ابن أبي ربيعة شاعر الشبيبة الغزلة والجمال المدل، ذلك الشاعر الذي قصر شعره على الحب والجمال فكان جميلًا كالحب حبيبًا كالجمال، وكان أكثره قصصيًّا رائعًا فيه من الفن والعذوبة ما لا تستطيع وأنت تقرؤه إلا أن تعجب به وتسيغه وفيها مثل امرئ القيس ذلك الشاعر الشقي بشعره المضحاك الفروح، التعيس بنفسه الغريدة الشاعرة، ذلك الشاعر التعيس الذي استهتر بالحب فكان له لذة سائغة في فجر شبابه وغصة مرة في مساء الحياة!

وفيها غير هذين ممن لم يتوفروا على القصص توفرهما ولكنهم ضربوا فيه بسهم غير يسير.

كل هذا أؤمن به وأُقِرُّهُ ولا أريد أن أعرض له بنقص أو تحوير، ولكن الذي أريده بعدُ هو أننا لو بحثنا في ما أبقاه لنا العرب من تراث أدبي جليل فهل نعثر فيه على شيء من القصص الحق الذي يجدر أن يُسَمَّى قصصًا؟

هل نجد هذا القصص الجميل الذي يراد لنفسه كفَنٍّ مستقل من فنون الأدب التي تتخذ للتعبير عمَّا في الحياة من حق وفن، هذا النوع الذي لا يُراد منه اللذة والإمتاع فحسب بل يراد منه إلى ذلك فهم الحياة الإنسانية بما اشتملت عليه من خير وشر ومن حسن وقبح ومن لذة وألم.

هل نجد هذا القصص الذي يقصد منه سبر جراح النفس البشرية الدامية، ورسم تلك الدماء الدفاقة التي تندفع آنًا بعنف وقوة وحينًا على رود وأناة؟

نجد هذا النوع القوي الذي يعمد إلى قلب ابن آدم، إلى يم الحياة! ليصور للبشرية ما فيه من الآمال المجنحة بأجنحة النجوم خفاقة مترنمة، وليريها طفل السماء الجميل الذي يدعونه (الحب) واقفًا على ضفة اليم ينفخ نايه مستفزًّا بنات الأعماق الحالمة … … وليعطيها صورة شيقة من تلك العواطف العتية الجامحة التي ترغي وتزبد وتصطفق، وتدوي بكل ما في الحياة من قوة وما في الحياة من صوت ثم تطغى فتأكل كل شيء وتقضي على كل كائن … فإذا الكل خراب في خراب، وإذا الكل قبضة من ضباب، وإذا اليم وحده يعج عجيج العاصفة ويدوي دوي الرعود، ثم يقر ويسكن فإذا نطفة بائسة تترجح في راحة الموت!

وأخيرًا، هل نجد في الأدب العربي شيئًا من هذا القصص الذي يتصل بالخيال الشعري أدق اتصال لأنه يتفهم الحياة بما اشتملت عليه؟

غير أني أرى من الخير أن أرجئ الإجابة عن هذا السؤال إلى ما بعد الإجابة عن سؤالين آخرين، أولهما: هل القصص العربي مستقل بنفسه عن غيره من فنون الأدب؟ ثانيهما: هل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص، ويسبر ويحلل؟ أما السؤال الأول فالجواب عنه هو أن القصص إما أن نبحث عنه في النثر وإما أن نبحث عنه في الشعر، فإن بحثنا عنه في الشعر، فالجواب أنه لم يستقل بنفسه استقلالًا يؤهله لمنزلة القصص الحقيقي أو ما يقاربه إلا في شعر ابن أبي ربيعة، ففي شعر هذا الشاعر وحده قارب القصص أن يستكمل قواه ولو أتاح الله للشعر بعد ابن أبي ربيعة من سار على قدمه وطبع على غراره لَكُنَّا نرى في الأدب العربي شعرًا قصصيًّا جميلًا جديرًا بهذا الاسم.

فإن الباحث في الأدب العربي ليستطيع أن يجد لغير ابن أبي ربيعة من شعراء العربية شيئًا من القصص الجميل ولكنه غير مستقل بنفسه، فقد يجد للمنخل اليشكري هذا القصص الصغير الجميل الذي يصف موقفًا من مواقف الحب:

ولقد دخلت على الفتا … ة الخدر في اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر … فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها، فتدافعت … مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فَتَنَفَّسَتْ … كتنفس الظبي الغرير
ودنت فقالت: (يا منخـ … ـل! ما بجسمك من حرور؟)

ما شف جسمي غير حبـ ـك فاهدئي عني وسيري

ولكنه لم يكن مستقلًّا بنفسه ولا مسوقًا بذاته لأنه من قصيد للشاعر أراد أن يفتخر فيه فتنقل في معانيه تنقل الطائر المدل. وقد يجد مثل هذا عند امرئ القيس في معلقته حين يقول:

وبيضة خدر، لا يرام خباؤها — تمتعت من لهو بها، غير معجل
تجاوزت حراسًا، وأهوال معشر — عليَّ حراصًا، لو يسرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت — تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت: وقد نضت لنومٍ ثيابَها — لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت: (يمين الله! ما لك حيلة — وما إن أرى عنك الغواية تنجلي)
خرجت بها، تمشي، تجر وراءنا — — على أثرينا — ذيل مرط مرجل[1]
فلما أجزنا ساحة الحي، وانتحى — بنا بطن حقف، ذي قفاف عقنقل[2]
هصرت بفودي رأسها، فتمايلت — عليَّ هضيم الكشح، ريا المخلخل[3]

ولكنه كالأول لا يزيد عن أنه بعض قصيدة تصرف فيها قائلها تصرفًا كبيرًا.

وقد يجد مثل هذا في (أيامه) وفي (أحارِ ابن عمرو!) وفي (ألا عم صباحًا) ويجد مثله عند النابغة في قصيدته (يا دار مية) وفي معلقته، بل ويجد مثل هذا عند أكثر شعراء العربية ولكنه لا يجده مستقلًّا بنفسه يستغرق القصيدة كلها لا يدع فيها مجالًا لغيره إلا عند ابن أبي ربيعة. وإنني لا أكتفي بقصيدة واحدة من شعره القصصي الكثير تبين لكم طريقته الشعرية في سرد القصص. تلك الطريقة الساحرة المغرية التي استهوت عذارى مكة وشبانها حتى حرم الكبراء رواية شعره على فتيانهم، والتي استهوت نفس جميل فقال: هيهات يا أبا الخطاب لا أقول واللهِ مثل هذا سجيس الليالي. والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد. على ما ذكره صاحب الأغاني، أما هاته القصيدة فهي هذه:

راح صحبي، ولم أُحَيِّ النوارا — وقليل لو عرجوا أن تزارا
ثم إما يسيرون في آخر الليل — وإما يعجلون ابتكارا
ولقد قلت حضرة البين، إذ جد — رحيل، وخفت أن أستطارا

لـخـلـيـل يـهـوى هـوانـا مـؤاتٍ　　كـأن لـي عـنـد مـثـلـهـا نـظـارا
(يا خليل اربعن علي — وعينا　　ي من الحزن تهملان ابتدارا)[٤]
(هاهنا فاحبس البعيرين! واحذر　　رائدات الـعـيـون أن تـسـتـنـارا)
(إنـنـي زائـر قـريـبـة. قـد يـعلــ　　ــم ربي أن لا أطيق اصطبارا)
قال: (فافعل، لا يمنعنك مكاني　　من حديث تقضي به الأوطارا)
(والتمس ناصحًا، قريبًا من الور　　د يـجـس الـحـديـث والأخـبـارا)[٥]
فـبـعـثـنـا مـجـربًـا، سـاكـن الـريـ　　ــح خـفـيـفًـا مـعـاودًا بـيـطـارا
فـأتـاهـا، فـقـال: (مـيـعـادك الـسـر　　ح إذا الـلـيـل سـدل الأسـتـارا)
فـكـمـيـنـا، حـتـى إذا فـقـد الـصـو　　ت دجا المظلم البهيم، فـحـارا[٦]
قلت لما بدت لصحبي: (إنـي　　أرتـجـي عـنـدهـا لـديـنـي يـسـارا)
ثم أقبلت رافع الذيل، أخفي الـ　　ـوطء، أخشى العيون والنظارا
فالتقينا، فرحبت حين سلمـ　　ـت، وكفت دمعًا من العين مارا[٧]
ثـم قـالـت عـنـد الـعـتـاب: (رأيـنـا　　فـيـك عـنـا تـجـلـدًا وازورارًا)
قلت: (كلا! لاه ابن عمك! بل خفـ　　ـنـا أمـورًا، كـنـا بـهـا أغـمـارا)[٨]
(فجعلنا الصدود — لما خشينا　　قـالـة الـنـاس — بـيـنـنـا أسـتـارا)
(وركـبـنـا حـالًا تُـكَـذِّبُ عَـنَّـا　　قـول مـن كـان بـالـبـنـان أشـارا)
والـلـيـالـي إذا نـابـت طـوال　　وأراهـا إذا دنـوت قـصـارا
فـعـرفـت الـقـبـول مـنـهـا لـعـذري　　إذ رأتـنـي مـنـهـا أريـد اعـتـذارا
ثم مالت، وسامحت بعد منع　　وأرتـنـي كـفًّـا، تـزيـن الـسـوارا
فـتـنـاولـتـهـا، فـمـالـت كـغـصـن　　حـركـتـه ريـح عـلـيـه فـحـارا[٩]
وأذاقـت بـعـد الـعـلاج لـذيـذًا　　كجني النحل شاب صرفًا عقارا
ثم كانت دون اللحاف لمشغو　　فٍ، مُعَنًّى، بها مشوق، شعارا
واشتكت شدة الإزار من البهر　　وألـقـت عـنـهـا لـديَّ الـخـمـارا[١٠]
حـبـذا رجـعـهـا إلـيـهـا يـديـهـا　　فـي يـدي درعـهـا تـحـل الإزارا
ثم قالت، وبان ضوء من الصـ　　ــبح، منير، للناظرين، أنارا:
(يا ابن عمي! فدتك نفسيَ! إني　　أتـقـي كـاشـحًـا إذا قـال جـارا)

فأنتم ترون في هذه القصيدة نوعًا طريفًا من القصص لا عهد للأدب العربي بمثله قبل ابن أبي ربيعة، لا عند امرئ القيس ولا عند النابغة ولا عند الأعشى ولا عند غير

هؤلاء ممن تقدمه من الشعراء، فابن أبي ربيعة جدير أن يسمى أبا الشعر القصصي لأنه هو الباذر الأول لبذرة هذا الفن، ولو تعهدنا من بعده من الشعراء لأنشأت نشأ حسنًا تعم فروعه جميع نواحي الحياة بعد أن كان قاصرًا على أحاديث الحب ونجوى القلب، ولكن هذا القصص الشعري قد استهل بحياته وانقضى بموته ولم يبعث على يد شاعر بعده من جديد.

وتلك حياة القصص في الشعر العربي وهي كما ترون حياة موجزة قصيرة كأعمار الورود … وأما في النثر العربي فقد ظفر القصص إلى حَدٍّ ما بما لم يظفر به في الشعر من الاستقلال والحياة، وذلك أن هذا الفن لم يعرفه النثر الجاهلي أصلًا لندرة النثر في الجاهلية ولأنه كان قاصرًا على الخطب والمحادثات ولم يدون منه إلا الشيء اليسير، ولم يعرفه النثر العربي بعد ذلك إلا في أواخر العصر الأموي عندما ترجمت قصص «ألف ليلة وليلة» فقد ألفت إذ ذاك بعض قصص أخرى تمثل شيئًا من الحياة العربية في تلك العهود وأضيفت إليها، ولكن كتاب «ألف ليلة وليلة» لم يبعث شيئًا من الحياة القصصية في النثر العربي البليغ، فظل على حالته الأولى إلى أن كان فجر القرن العباسي وإذ ذاك ترجم ابن المقفع عن الفارسية بضع كتب قصصية تضرب إلى الحكمة والمثل لا نعرف منها إلا كتاب «كليلة ودمنة» فكانت هاته الكتب فتحًا جديدًا في النثر العربي بعثت فيه روحًا قصصية لم تكن فيه من قبل. ونشطت أقلام بعض الكتاب إلى العمل في هذا السبيل فألف ابن فارس أستاذ بديع الزمان مقامات لم يحدثنا التاريخ بشيء منها، ثم ألف من بعده بديع الزمان مقاماته ثم ألف الحريري مقاماته المعروفة، ومن لدن الحريري انحط هذا الفن انحطاطًا كبيرًا وأصبحت المقامة إنما هي ألفاظ مرصوفة وكلمات مرصوصة يتباهى بتنضيدها والمخالفة بين ألوانها كما يتباهى الصبيان برصف الحجارة اللامعة … وفي تلك الفترة التي كانت بين البديع والحريري أَلَّفَ المعري رسالة الغفران وهي من خير ما ألف في النثر القصصي خيالًا ومغزى، ففي رسالة الغفران يجد الباحث في النثر القصصي ما لا يجده في غيرها من الصور الشعرية الرائعة والجمال الفني البديع، ولا أعد من النثر القصصي تلك الكتب التي من طراز «ألف ليلة وليلة» لأن مثل هاته الكتب لا حَظَّ لها من الأدب العربي البليغ الذي لا أتحدث عن غيره.

وأما السؤال الثاني وهو: هل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص ويسبر ويحلل؟ فالجواب عنه أن القصص العربي لم يكن من هذا النوع وإنما

كان أحد أنواع ثلاثة: إما قصص يقصد به اللذة والإمتاع وهو ما نجده في شعر ابن أبي ربيعة وأمثاله من تلك الأحاديث الغرامية الغزلة، وإما قصص يراد منه الحكمة وضرب المثل وهو هذا القصص الذي يمثله كتاب «كليلة ودمنة» وما سار على نهجه، وإما قصص يقصد للنكتة الأدبية والنادرة اللغوية وهو فن المقامات الذي يحمل لواءه البديع وأستاذه، والحريري ومن حذا حذوه.

وبعد فهل كان للقصص العربي نصيب من الخيال الشعري الذي نبحث عنه؟ أقول: لا، لأن الخيال الشعري لا يضطر إليه إلا من أراد خوض ظلمات الحياة وأنفاقها، واستطلاع ما في خفايا النفوس من صور ورسوم؛ لأن الخيال الشعري هو فانوس الحياة السحري الذي لا تسلك مسالكها بدونه، والقصص العربي لم يجشم نفسه ركوب هذه السبيل الغامضة المتعرجة، بل اتبع تلك الطريق المنبسطة الواضحة التي لا تؤدي إلى اللُّجَّةِ ولا الهاوية ولكنها تؤدي إلى صحراء مدحوة يأخذ الطرف ما فيها لأول نظرة ... تلك الطريق اللاحبة العارية التي سارت عليها أساطير العرب وآدابهم.

هوامش

(١) مرط: كساء من حرير. مرجل: مرسوم به صور الرجال.

(٢) الحقف: الرمل المستطيل المشرف. القفاف: المنعقدات من الرمل. عقنقل: بعضه فوق بعض.

(٣) هصرت: جذبت. بفودي: بجنبي الرأس. هضيم: لطيف.

(٤) اربعن: اعطف والنون للتوكيد.

(٥) الورد: محل الورود. وذهاب العشاق إلى موارد الماء لتتبع النسوان أو بعث سفرائهم إليهن لتلقف الأخبار، وضرب المواعيد عادة عربية لم تزل حتى الآن متبعة في البادية.

(٦) كمَيْنا: كَمَنَّا واستترنا. حار: رجع.

(٧) مار: سال وجرى.

(٨) لاه: بكسر الهاء، لله در. أغمار: جمع غمر وهو من لم يجرب الأمور.

(٩) حار: رجع إليه.

(١٠) البهر: ضيق النفس من الامتلاء أو الإعياء.

فكرَة عَامة عَن الأدَب العَربي

قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه شيوع النور في الفضاء لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تَشَوُّف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، وأنه كلمة ساذجة، لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار ولا تفصح عن فكر يتَّصِل بأقصى ناحية من نواحي النفوس، وفراشة جميلة ترفرف بين الزهور الحالمة ولا تجسر على الدنو من سراديب الجبال وأعماق الكهوف والأودية … حتى إن الباحث فيه ليجهد نفسه في التنقيب عن ذلك الفن الذي يقرأه وهو خاشع، ويسمعه وهو مصيخ بكل ما في روحه من شوق، وبكل ما في قلبه من شغف، كأنه يستمع إلى الوحي من لسان القدرة الأزلية، ذلك الفن السماوي الذي يشعر حين قراءته باتساع أفق الحياة في نفسه وبانفساح رقعة الإحساس في قلبه، حتى ليكاد يسمع هدير العواطف بين جنبيه وخرير الحياة في عروق الكون، فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العقيم.

على أنني حين أقول هذا الذي قد يراه بعض الناس خطيئة لا تغفر، لا أنكر أن الأدب العربي قد أجاد أيَّما إجادة فيما تخصص فيه من وصف المظاهر البادية وما بينها من تخالف أو تآلف أو تشابه أو تنافُر، بل ربما فاق كثيرًا عن الآداب الأخرى في هذا الصدد. ولا أقول إن الأدب العربي جامد ميت لم يمثل منازع تلك الشعوب التي عاش بينها تمثيلًا صحيحًا ولا قدم لها غذاءها الروحي الذي تتطلبه أهواؤها ومشاعرها؛ لأن الأدب العربي كان في جميع العصور التي تحدثنا عنها أدبًا حيًّا صحيحًا فياضًا بكل ما تصبو إليه آمال تلك الشعوب من صور الحياة ومثلها المختلفة، ولولا أنها وجدت فيه المشرب العذب الذي تستمرئه طباعها وتسيغه لَمَا اعترفت به وأقبلت عليه ذلك الإقبال؛ فقد كان

الأدب الجاهلي بدويًّا محضًا تسمع فيه رنة الصوت البدوي الأجش الذي لا يعرف رقة الختل ولا نعومة المدنية الكاذبة، وتلمح في أعطافه روح البداوة المتوثبة الجائشة، بكل ما فيها من عزة وادِّعَاء، وشدة الطبع البدوي العتيد الذي لا يعرف خفضًا ولا هوادة، وكان الأدب الأموي على قسمين يمثلان الحياة الأموية تمثيلًا واضحًا جليًّا: قسم يصور هذه الحياة العابثة المخلدة إلى البطالة واللهو، وقسم يمثل هذه الحياة الجادة العابسة التي تتلقفها الأهواء السياسية والدعوات الحزبية المتباينة، وكان الأدب العباسي لاهيًا ماجنًا خليعًا في عنفوان المجد العباسي وشرخ الحضارة الإسلامية، ثم حائرًا متشككًا مضطربًا تعصف به الرياح النكب والظلمة الداجية في أواخر القرن الثالث وما بعده؛ لأن الحياة الإسلامية كانت حياة رعب وشك، وكان الأدب الأندلسي مستهترًا مسرفًا في اللذة والمجون لأن الأمة الأندلسية كانت صبية لاعبة تمرح بين الرياض والجداول.

فأنا إذن عندما أقول ذلك عن الأدب العربي لا أزعم أنه لا يلائم أذواق تلك العصور ولا أرواحها، ولكنني أقول إنه لم يعد ملائمًا لروحنا الحاضرة ولمزاجنا الحالي ولأميالنا ورغائبنا في هذه الحياة، فقد أصبحنا نرى رأيًا في الأدب لا يمثله ونفهم فهمًا في الحياة لا نجده عنده ونطمح بأبصارنا إلى آفاق أخرى لم تحدثه بها أحلامه ولا يقظاته. لقد أصبحنا نتطلب أدبًا جديدًا نضيرًا يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور، نقرأه فنتمثل فيه خفقات قلوبنا وخطرات أرواحنا وهجسات أمانينا وأحلامنا، وهذا ما لا نجده في الأدب العربي القديم. لقد أصبحنا نتطلب أدبًا قويًّا عميقًا يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة بما فيها من شوق وأمل … وهذا ما لا نجده في الأدب العربي ولا نظفر به؛ لأنه لم يُخلق لنا نحن أبناء هذه القرون وإنما خُلق لقلوب أخرستها سكينة الموت، أما نحن فما زلنا بعدُ من أبناء الحياة؛ ولهذا فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعدَّه كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها ليس غير. أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا، لكل عصر حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب.

يجب علينا أن لا ننظر إلى الأدب العربي إلا تلك النظرة المعجبة لا غير حتى يمكننا أن نتخذ لنا أدبًا قويمًا فيه ما في الحياة الحاضرة من عمق في الفكر وسعة في الخيال ودقة في الشعور، أما أن نتخذ الأدب العربي الذي عرفنا خُلُوَّهُ من مثل هاته الأمور مثلَنا

الأعلى الذي ننسج على منواله، فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام. لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ... أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة ... لقد أصبحنا نتطلب الحياة ... ولكن لنعلم قبل ذلك أننا جياع عراة، وأن تلك الثروة الطائلة الضخمة التي أبقاها لنا العرب لا تشبع جوعنا ولا تسدُّ خلتنا. لعلنا إن شعرنا بفقرنا وعرانا تحركت فينا عوامل العزة الإنسانية فطفقنا نعمل بعزم وقوة ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به أرواحنا الجائعة ممَّا نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة ...

فلا خير في أمة عارية تكتم فقرها ... ولا خير في شعب جائع يُظهر الشبع ... وشَرٌّ من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموت ثم تخرج في نور النهار متبجحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور ...!

ذلك رأيي في الأدب العربي، أقوله بكل صراحة وجلاء دون أن أغمغم به أو أجمجم، ولا يغض من الأدب العربي شيئًا أنه مادي لا شيء فيه من عمق الخيال وقوة التصور؛ لأن هذا منشؤه الروح العربية التي أَمْلَتْ هذا الأدب وألقت عليه هذا اللون الخاص، وإنما الذي يغض مِنَّا — معشر التونسيين — هو أن نتخذ من هذا الأدب الذي لم يخلق لنا ولم نخلق له غذاء لأرواحنا ورحيقًا لقلوبنا لا نترشف غيره.

ذلك رأيي في الأدب العربي وفي موقفنا تجاهه، أقوله لأنه الحق وإن كنت أعلم أنه سيُغْضِبُ طائفة كبيرة ممن يُؤْثِرُونَ الحياة في أكناف الدهور الغابرة، حيث السكينة التي لا تصم الآذان والسبات الذي لا يستفز الحياة، ولكنني في غنية عن سخط هاته الطائفة من الناس وعن رضاها؛ لأنها تقدس كل ماضٍ وتعبد كل قديم لا لأن فيه حقًّا ونورًا ولكن لأن رداء القدم يكسبه مهابة الماضي وجلال التاريخ. أنا في غنية عن مثل هذه الطائفة من الناس، وحسبي أني أعلنت حقيقة أرضيت بها نفسي وأرضيت بها الحق وذويه، ولكن لكي لا يبقى ريب في قلوب هاته الطائفة التي ستنكر عليَّ هذا الرأي أقول: نبئوني يا سادتي! هل تجدون في العربية من يحدثكم عن تلك المعاني العميقة التي هي أعمق من الموت وأشد سعة من الحياة، تلك المعاني القوية النافرة التي تلوذ بأودية الفكر وشعاب الخيال؟ كلا! ولكنكم واجدون من يستطيع أن يحدثكم بكل أسلوب وصوت عن تلك المعاني الساذجة والأفكار الداجنة التي أَلَمَّ بها العرب في بداوتهم الأولى وأدركوها قبل أن تلمس أفئدتهم جذوة الحق وتذهب بأوهامهم تيارات الحياة.

نبئوني يا سادتي، هل تجدون في العربية من يستطيع أن يحدثكم عن هاته العواطف العنيفة التي تهز أسس الحياة هزًّا، هاته العواطف المتنافرة التي تنطلق فينا باسمة مستبشرة وادعة، أو مذعورة باكية متفجعة أو جامحة مزمجرة ناقمة؟ كلا! ولكنكم واجدون من يستطيع أن يُنَضِّدَ لكم من المجازات الزائفة والكنايات المتكلِّفة ما تعجز عن بعضه جِنُّ سليمان، مما لا علاقة له بالروح ولا رَحِم بينه وبين خيال الحياة.

خبِّروني يا سادتي! أي شاعر عربي يستطيع أن يحدثكم حديثًا مغريًا جميلًا عن الحب، عن هذا المعنى العميق العريق في النفس الإنسانية الذي يهز المشاعر ويؤجج نيران الحياة؟ بل أي شاعر عربي يستطيع أن يحدثكم حديثًا شعريًّا صادقًا عن نشوة الحب وسكرة المشاعر ... تلك السكرة الخالدة التي تستغرق النفس وتتغلغل بها في صميم الوجود أيان يترنم الحق وتخر أمواج الحياة؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يحدثكم عن الأمل؟ هذا الكأس السماوي المورد الذي تترشف منه الإنسانية التائهة رشفات المسرة وسلسبيل الوجود؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يصور لكم معنى الأمومة الحانية الرءوم، هذا المعنى الكبير الذي ينبسط كالبحر في عمق وسعة وسكون ...؟ أو يريكم مثلًا حيًّا من مُثُلِ الحياة الإنسانية الضائعة، كان يريكم موقف النفس البشرية ما بين العواطف المتباينة، تدعوها هذه وتُهِيبُ بها تلك، أو يريكم هجسات القلوب وخلجاتها، وأحلام النفوس الناشئة الواقفة على عتبة القدر تحلم بما خلف الغد البعيد؟

هل تجدون يا سادة واحدًا بين شعراء العربية يستطيع على أن يتحدث إليكم عن مثل هاته الأشياء القوية الغامضة، وإن استطاع فهل يقدر أن يرسم لكم منها صورة مغرية ساحرة أو يعطيكم منها معنى شيقًا جميلًا صادقًا هو أدنى إلى الحقيقة مما عاداه؟ كلا، فأنتم لا تجدون مثل هاته المعاني في الأدب العربي بحال؛ وذلك لأنه أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة.

ولكنكم واجدوه وأكثر منه عند آداب الأمم الأخرى. ها هي نشوة الحب الشاملة تترنم في قلب لامرتين، فلنستمع إليها حينما غمرته بفيض من سعادة الحب وغبطة القلب جعلته يستغرق في هذا العالم الرائع استغراق الصوفي الصميم في ربه.

... كنت أفتح ذراعي للهواء والماء والفضاء كأني أريد أن أعانق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأسرارها وحياتها وجمالها في هذه المرأة الفاتنة، وكنت أجثو على الصخور والشوك دون أن أحس وأركع على شفير الهاوية دون أن أرى وأرفع صوتي بالكلام المبهم يطغى عليه صخب الأمواج الهادرة فيذهب، وأغوص في رقيع

السماء اللازوردية بنظراتي الدائبة الثاقبة لأكشف فيها عن وجود الله نفسه. أنا لم أعد قط إنسانًا وإنما كنت تسبيحة هائمة وتحية دائمة أصيح وأغني وأبتهل وأصلي وأذكر وأشكر بالفيض والإلهام لا بالنطق والكلام، فمشاعري ثملة فرحة ونفسي هائجة مرحة وجسمي ينتقل من هاوية إلى لُجَّةٍ غير ذاكر هيولاه ولا معتقد بالزمان ولا بالمكان ولا بالموت.

وهكذا فجَّر الحب في قلبي ينابيع الغبطة وأيقظ في نفسي راقد العواطف، وجلَّى لعيني مسارح الخلود!

فهل سمعتم شاعرًا عربيًّا ممن تعرفون يتحدث عن نشوة الحب بمثل هذا الحديث القوي المشتعل الذي تسمع فيه رنة السكر وغُنَّة السعادة وغمغمة النفس الساهية في غيبوبة الحلم؟ أم هل رأيتم شاعرًا عربيًّا تتجلى روحه في مثل ما تجلت فيه روح لامرتين من هذا الرداء السحري الشفاف الذي ينم عمَّا خلفه، كضباب الصباح؟

هل سمعتم من فم المجنون أو قيس ابن ذريح أو جميل أو ذي الرمة أو ابن ربيعة أو امرئ القيس حديثًا صادقًا لذيذًا عن نشوة الحب كهذا الحديث؟ إنكم لم تسمعوا مثل هذا الحديث لا من هؤلاء ولا من غيرهم من شعراء العربية، ولماذا هذا؟ هل لأنهم لم يَتَذَوَّقُوا نشوة الحب ولم تلعب بأعطافهم حميا الصبابة؟ لا، فهم تذوقوا الحب كما تَذَوَّقَهُ لامرتين، ولكن الروح العربية لا تستطيع أن تنظر إلى الأشياء كما تنظر إليها الروح الغربية في عمق وتؤدة وسكون؛ لأنها مادية تقنعها النظرة العجلى التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب، فالأدب العربي قد تحدث عن الحب ولكنه لم يستطع أن يتحدث عنه في جوهره، بل تحدث عنه في أعراضه ولوازمه، وتحدث عن الأمل ولكن بطريقة توهمك أنه لا يتحدث عنه، فقال الشاعر العربي عن الحب:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة — وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين، يا مي! كلما — بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وحاول ابن الفارض أن يتكلم عنه فما وُفق، واضطر إلى أن يلجأ للطريقة العربية التي سار عليها آباؤه الأولون منذ العصور الغابرة، أراد أن يتحدث عنه بغير ما أَلِفَ العرب فقال: «هو الحب» … ولكنه عجز عن أن يتمه على ما أراد، فقال كما أَلِفَ العرب أن يقولوا:

هو الحب، فاسلم بالحشا، ما الهوى سهل، فما اختاره مُضنًى به وله عقل

وتكلم الأدب العربي عن الأمل فقال الطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها «ما أضيق العيش لولا فسيحة الأمل!»

ولكن الباحث يمر بهذا البيت ولا يدري أن قائلها تَكَلَّمَ فيها عن الأمل، لأنه في الحقيقة تكلم عن أثره في الحياة، أما عن الأمل نفسه فلم يقل شيئًا. وتلك هي طريقة الأدب العربي في التكلم عن هاته المعاني العميقة التي تؤدي إلى أعماق الخيال، لا يتكلم عنها في صميمها بل يتكلم عنها في أعراضها وآثارها البادية المدركة، بل إنه يتبع هذا السبيل في تكلمه عن جميع الأشياء سواء منها ما يدركه البصر وما يحجبه الضمير، وهذا ما دعاني لأن أقول إن الأدب العربي أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام، وأنه ينبغي لنا إن أردنا أن ننشئ أدبًا حقيقًا بالخلود والحياة أن لا نتبع الأدب العربي في روحه ونظرته إلى الحياة لأنها لم تعد صالحة للبقاء في مثل هاته العصور التي تتوثب يقظة وانتباهًا.

فالشاعر العربي إذا عَنَّ له مشهد جميل اسْتَخَفَّ نفسه واستفز شعوره، عمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله، فأعطى منه صورة واضحة أو غامضة على حسب نبوغه واستعداده ولباقته في الرسم والتصوير، دون أن يكشف عمَّا أثاره ذلك المشهد في نفسه من فكر وعاطفة وخيال، كأنما هو آلة حاكية ليس لها من النفس البشرية حظ ولا نصيب، فهو كالمصور الفوتوغرافي لا يهمه إلا التقاط الصور والأشباح وإظهارها كما هي، دون أن يرسم معها صورة من نفسه ولونًا من شعوره، تاركًا للمشهد وحده أن يثير في نفس الناظر ما يثير، حتى إذا ما تصرف فلا يعدو التزويق والتنميق حتى يبدو الرسم جميلًا خلابًا يستهوي الأفئدة ويختلب النفوس. تلك هي الطريقة العربية في تناول الأشياء والنظر إليها، إلا أفرادًا قلائل شَذُّوا عن هاته الطريقة في بعض أشعارهم كابن الرومي وأبي تمام والبحتري، أما الشاعر الغربي فإنه يفتح أمام القارئ مغاليق نفسه ليريه ما أهاجه بها المنظر من عاطفة راكدة ووجدان كمين، ويجعله يلمس بقلبه ذلك الوتر الذي اهْتَزَّ في أعماق نفسه فملأ جوانبها بالأنغام وأهاج بها سواكن الأحلام، ثم هو إزاء ذلك إما أن يصف المنظر ويسبغ عليه من الخيال الجميل حُلَّةً ضافية مشبوبة متأججة، وإما أن يسكت عن المشهد تاركًا لمخيلة القارئ الحرية في

تصوره وانتخاب المثل العليا إليه. وهذا هو علة ما نحسه من أن الصوت الغربي أقوى دويًّا وأبعد رنينًا من الصوت العربي الخافت الضعيف؛ لأن الصوت الغربي هو لحنان مزدوجان في آنٍ واحد: لحن يتصل بأقصى قرار في النفس، ولحن متصل بجوهر الشيء وصميمه. أما الصوت العربي فليس مصدره النفس ولا جوهر الشيء، ولكن مصدره الشكل واللون والوضع، وشتان بين القشرة واللباب!

والشاعر العربي إذا ما أراد أن يبسط فكرة من أفكاره ألقاها في بيت فرد أو جملة واحدة إن استطاع، ثم انْهَلَّ بوابل من الأفكار المتتابعة بحيث تكون القصيدة كحدائق الحيوان فيها من كل لون وصنف، أو كالأرض المقدسة التي يحشر فيها الناس من كل أوب وصوب ومن كل فئة وقبيل، وتكون الأفكار منبثة في صعيد واحد، متماسكة بعضها من الرءوس والبعض الآخر من الأذناب، كما في معلقة طرفة وزهير ومجمهرة عدي بن زيد ولامية الطغرائي وكثير من قصائد المتنبي وغيره من شعراء العربية.

أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي حرَّكت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية، ثم لا يلقيها كما يلقي الحجر الصلد عاريًا جامدًا، أو كما يلقي الأساتيذ تعاليمهم، ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال.

ولكي يتضح الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشياء والنظر إليها، فإنني أريد أن آخذ قصيدة ابن زريق البغدادي وأتناولها بطريقة تحليلية موجزة وأقابل بينها وبين قطع أخرى للشاعر الإسكوتلندي (أسيان)، يقول ابن زريق في أول قصيدته:

لا تعذليه فإن العذل يولعه   قد قلت حقًّا ولكن ليس يسمعه

ثم ينصرف فيها واصفًا بؤسه وشقاءه وما عالجه من مغالبة الدهر ومصارعة بأساء الزمن وتجشُّم الاغتراب حتى كأنه (مُوَكَّلٌ بفضاء الله يذرعه)، ثم يتخلص إلى بسط فلسفة القناعة البائسة التي هي لون هادئ من ألوان اليأس وصوت خافت من أصوات القنوط، فيقول: إن من العبث الاسترسال مع المطامع الشرهة والأقدار قد قسمت حظوظ البشر، وإن من (البغي الذي تخشى مصارعه) حرصك في طلب الرزق وأنت تعلم أن الأرزاق قد ذهبت في الناس حظوظًا. وهذا التخلص إلى تلك الفلسفة طبيعي لا تكلُّف فيه، طبيعي ممن كان كابن زريق تَجشَّم ما تجشم وراء بغيةٍ يود أن يسعد بها حبه وقلبه

فيتذوق لذة العيش وعذوبة الحياة، ثم عاقته الأقدار وأحبطت سعيه سخرية الدهر. لأن من كان مثله لا بد أن ينهج أحد سبيلين: هذا اليأس الخانع الذي يتظاهر بالطمأنينة والخضوع، أو ذلك اليأس الجامح الذي يتفجر في ثورة قاصفة وتمرد عنيف يعصفان بكل شيء ولا يلويان على شيء.

وليس هذا ما أريد الوقوف عليه من قصيدة ابن زريق، ولكن غرضي وراء ذلك: غرضي هو وصفه ليوم الوداع وما وراءه من حسرات دامية ومشاعر باكية تتوجع، غرضي هو تلك العواطف التي تتفجَّر في جوانب القصيدة متألِّمة متبرمة شاكية، تلك العواطف المشبوبة بنار الألم، وذلك الأسلوب الذي يكسوها هو الذي أريد أن نتعرف منهما مقدار الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الغربية. وبعد أن بسط ابن زريق فلسفته القانعة قال:

أستودع الله في بغداد لي قمرًا	بالكرخ، من فلك الأزرار مطلعه
ودعته، وبِوُدِّي لو يودعني	صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه	وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل، ضحى	وأدمعي مستهلات وأدمعه

بمثل هاته البساطة يستعيد ابن زريق تلك الذكرى الأليمة النائية التي هي كل ما بقي له من ماضيه الجميل! وبمثل هذا الهدوء الفاتر يتلو ابن زريق أول صفحة من مأساة الحب، ويصف أول طعنة في صميم الأمل! وبمثل هذه النفس المطمئنة يقص موقف الفراق بينه وبين من أحب دون أن تنفلت من قلبه أَنَّةٌ، أو تنسلخ من نفسه شعلة من شعل الألم؟ كأنه يقص قصة لم يتزعزع لها قلبه ولا تحطمت لها آماله، وإنما هي قصة وقعت أرزاؤها على غيره وحلت ألواؤها بسواه لولا شيء من المرارة تحس به النفس يتمشى في أجزاء الأبيات. ولكن انظروا كيف يستعرض (أسيان) تلك الذكريات المتفجعة، ذكريات أمسه الذي تلقى فيه أمضى سهم من سهام القدر وتجرع أمر نطفة من نطف العيش، انظروا كيف يقول على لسان (أزمين) لما تذكر مصرع ولديه:

> هبي يا رياح الخريف هبي! واعصفي فوق سهول الخلنج العابسة، واصدمي أيتها العواصف رؤوس السنديان، وادْوِي يا سيول الغابة، وتقدمْ أيها القمر خلال الغيوم الممزقة، واحسِرْ عن وجهك الشاحب فترةً بعد فترة، وأَعِدْ إلى

ذاكرتي تلك الليلة المروعة ليلة دعا داعي الموت ولدي فسقط (أرندال) القوي وهلكت (دورا) العزيزة!

بمثل هاته الكلمات النارية المتضرمة التي يكاد يسمع من خلالها زفير وشهيق الأرواح البائسة يبدأ أسيان ذكرياته، وبمثل تلك البساطة الهادئة يبدأ ابن زريق ذكرياته. وما أبعد الشقة بين الاثنين! فابن زريق لا يعطي إلى الإنسانية صورة صادقة من نفسه ولا لونًا واضحًا من شعوره، وأسيان يلقي إليها بكل ما في نفسه من عواطف وذكر، وبكل ما ثار حول ذكرياته من آلام، وبكل ما عجَّ حول قلبه من غصص وأوجاع. وذلك هو الفارق بين النفسية الغربية والنفسية العربية، فالعربي يوجز في الملاحظة ويوجز في البيان الغربي، إن لاحظ أبى إلا أن يستقصي كل شيء، وإن حدث أبى إلا أن يعطي صورة من نفسه في أفراحها وأتراحها، وفي طهارتها ودعارتها، وفي يأسها وآمالها.
ثم يذهب ابن زريق يبث أوجاعه وحسراته هينة كأنفاس طفل نائم تساوره الأحلام المزعجة، وكلما اطَّرَدَ في القول إلا وخَفَتَ صوته حتى ينتهي نفس القصيدة في هذا الصوت الخافت الذي يعبث به اليأس والأمل والموت:

على الليالي التي ظنت بفرقتنا	جسمين تجمعني يومًا وتجمعه
وإن تغل أحدًا منا منيته	لا بد في غده الثاني سيتبعه
وإن يدم أبدًا هذا الفرق لنا	فما الذي بقضاء الله نصنعه

فمن قرأ هذا المقطع الأخير شعر بالأسى يتمشى في أجزائه يحاول الانفجار، وبالعَبْرَةِ الحارة تتخلَّجُ في أجفان الشاعر تتطلب الانحدار، وبالزفرة الحارة تحتبس في صدر المكلوم دون أن تجد لها مخرجًا أو مناصًا. أما أسيان فإنه يقول في مثل هذا الموقف فتكاد تسمع من خلال قوله صعقات الحزن وآهات الأسى:

كلموني يا أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل، كلموني فإنني لا أرتاع ولا أفزع، خبروني أين تلتمسون الراحة؟ أفي الغيران الموشحة والكهوف! أوافكيم فألاقيكم؟ حنانيك يا رب! لا يحمل الهواء صوتًا ولا ترد العاصفة جوابًا، أنا وحدي في وسط الآلام، أنتظر الصباح باكية بدموع الغمام! احفروا القبر يا أصدقاء الموتى، ولا تهيلوا التراب قبل أن تأتي (كلمي)!

مضت حياتي مضى الحلم، وسبق الذين أحبهم فلم أتأخر عنهم؟ هنا أريد الثراء بجانب الأحبة على ضفة الجدول الهادر فوق الصخرة!

حينما يضرب الليل بجرانه على التلعة، وتهب الريح رخاء فوق الخلنج، تجدون هناك روحي مع الهواء تبكي الأحبة وترثيهم، فيسمعني الصائد في كوخه فيفزعه صوتي، ولكن لا يلبث أن يحبه، فإن صوتي سيكون عذبًا رخيمًا في رثاء الحبيبين، لقد كان كلاهما عزيزًا عليَّ![١]

وهكذا كانت الروح العربية متكتمة لا تسمح للنور أن يلامس أحلامها، ولا للظلمة أن تعانق آلامها، وأما الروح الغربية فهي متبسطة تلقي بأفراحها وأتراحها تحت أقدام الليل وفوق أجنحة الرياح …

هوامش

(١) أخذنا هذه القطعة عن «قرتر» لجيته الذي ترجمه الأستاذ الزيات.

الرُّوح العَرَبية

- طبيعتها الخاصة والعوامل التي كَوَّنَتْ فيها ذلك الطبع. والمؤثرات التي عملت على إبقائه في مختلف العصور.

لقد علمتم من كلماتنا السابقة، أن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره، قد كان على وتيرة واحدة، ليس له من الخيال الشعري حَظٌّ ولا نصيب، وأن الروح السائدة في ذلك هي النظرة القصيرة الساذجة التي لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وصميم الحقائق، وإنما همها أن تنصرف إلى الشكل والوضع، واللون، والقالب، أو ما هو إلى ظواهر الأشياء أدنى من دخائلها، فهي لا تتحدث عن الطبيعة إلا بألوانها وأشكالها، ولا يهمها من المرأة إلا الجسد البادي، وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان وآلام البشر، وفي الأساطير لا تعبر عن فكر سامٍ وخيال فياض، وإنما هي أوهام لائشة وأنصاب جامدة.

كل هذا علمتموه من قبلُ حينما عرضت له في شيء من التحليل والإطناب والاستقراء، أما الذي يهمني الآن بعد أن علمتم أن كل ما أنتجه العقل العربي كان مطبوعًا على غرار واحد ومصطبغًا بصبغة واحدة، فهو أن نعرف طبع الروح العربية التي صقلت منتجاتها هذا الصقال، وأرسلت عليها من هذا اللون الذي عرفتموه، وأن نعرف العوامل التي عملت على خلقها هذا الخلق الذي وسم كل ما جادت به قريحتها بوسم خاص.

وإذن فما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟

الروح العربية خطابية مشتعلة، لا تعرف الأناة في الفكر فضلًا عن الاستغراق فيه، ومادية محضة لا تستطيع الإلمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال إلى أبعد شوط وأقصى مدى. ومن هاتين النزعتين — الخطابة والمادية — اللتين ذهبا بها في الحياة مذهبًا خاصًّا، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة لا تطمئن إلى زهرة حتى

تغادر إلى أخرى من زهور الربيع؛ ولذلك فهي أبدًا منتقلة وهي أبدًا حائمة، تلك هي الروح العربية وذلك هو طبعها وإن فيما رأيتم من أثارها العقلية لصداق لما قلته.

وقد كان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف مَلَكَةِ الخيال الشعري في النفسية العربية حتى كانت آثارها على ما رأيتم؛ لأن الخيال مصدره الشعور، فما كان الشعور دقيقًا عميقًا إلا وكان الخيال فياضًا قويًّا. ولا يمكن أن تجتمع الخطابة ودقة الإحساس في نفس إلا ندورًا؛ لأن الخطابة تعتمد المزاج الناري والنظرة البسيطة والإلمامة القانعة، ودقة الإحساس تستلزم المزاج الهادئ والنظرة الطويلة المتدبرة والإحاطة الشاملة المتقصية، ولهذا كان الخطباء المصاقع والفصحاء المصاليت قَلَّمَا يجتمع لهم مع اللسن وشدة العارضة قوة الفكر وسمو الخيال.

وقد كان لهاتين النزعتين آثار أخرى في آراء العرب وأذواقهم، منها أنهم كانوا لا ينظرون إلى الشاعر كما ننظر نحن له الآن من أنه رسول الحياة لأبنائها الضائعين بين مسالك الدهر، بل كانوا لا يفرقون بينه وبين الخطيب من أنه حامي ذمار القبيلة، والمناضل عن أعراضها بلسانه، والمستفز لنخوة الحمية في أبنائها حينما تأزف الآزفة ويجد الجد. إلى أن الشاعر ينظم خطبته والآخر ينثرها نثرًا، حتى إنهم لما جعلوا لشعرائهم أرواحًا تملي عليهم الشعر، لم يجعلوا تلك الأرواح ملائكة أو آلهة تُسمِعهم الوحي وتملأ قلوبهم بالأناشيد الخالدة ... كما كان في أساطير غيرهم، وإنما جعلوها شياطين تصقل لسان الشاعر وتجعله أدنى إلى بلاغة القول وجزالة الخطاب، وما ذلك إلا لأنهم لا يرون في الشاعر إلا خطيبًا ينظم ما يقول. وقد تأثر الشعر العربي بهذا الفهم الذي كان يفهمه العرب من الشاعر فكان فيه شيء كثير من الخطابة المنظومة ...

ولو استقرأ الباحث الأدب العربي وبالأخص الأدب الجاهلي والأموي لَعلم أن فيه كثيرًا من هاته القصائد التي لو فُكت من قيود الشعر وأصفاد القريض لكانت خُطَبًا رائعة لا ينقصها شيء من روح الخطابة وطابعها. وماذا يكون غير الخطابة في معلقة عمرو بن كلثوم، ومجمهرة بشر بن حازم وأمية بن أبي الصلت وخداش، وملحمة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي؟

ولو شئت أن آتي بأمثلة كثيرة من الشعر العربي الذي لا فرق بينه وبين الخطب إلا في الوزن والقافية لامتدَّ نفس القول ولضاق المجال، ولكني سأكتفي بقصيدة واحدة تدلكم على مبلغ تأثر الشعر العربي بالخطابة.

وهاته القصيدة هي قصيدة الحارث بن عباد[1] التي قالها لما قتل المهلهل ابنه بجيرا وقال له: (بُؤْ بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيْبٍ) يستفز الحمية في قومه لخوض غمرات الحروب بعد أن اعتزلها إيثارًا للسلام وحقنِ الدماء. يقول الحارث بعد أن بكى ابنه وأمر أُمَّهُ أن تطيل عليه النحيب:

لهف نفسي على بجير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال
يا بجيرة الخيرات! لا صُلْحَ، حتى نملأ البيد من رءوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاها حين تسقي الدما صدور العوالي
أصبحت وائل تعج من الحر ب عجيج الجمال بالأثقال
لم أكن من جناتها علم الله، وإني لحرها اليوم صالي
قد تجنبت وائلًا، كي يفيقوا فأبت تغلب عليَّ اعتزالي
وأشابوا ذؤابتي ببجيرا قتلوه ظلمًا بغير قتالي
قتلوه بِشِسْعِ نَعْلِ كليب!! إن قتل الكريم بالشِّسْعِ غال
يا بني تغلب! خذوا الحذر! إنَّا قد شربنا بكأس موت زلال
يا بني تغلب قتلتم قتيلًا ما سمعنا بمثله في الخوالي
قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال[2]
قربا مربط النعامة مني جد نوح النساء بالأعوال
قربا مربط النعامة مني شاب رأسي وأنكرتني القوالي
قربا مربط النعامة مني لا نبيع الرجال بيع النعال …
قَرِّبَاهَا، وقربا لأمتي در عًا دلاصًا ترد حد النبال
قرباها بمرهفات حداد لقراع الأبطال يوم النزال
رب جيش، لقيته يمطر المو ت، على هيكل خفيف الجلال

صوروا لأنفسكم أيها السادة بدويًّا موتورًا يدوي صوته بين قومه بمثل هاته القطعة النارية الملتهبة: يبكي فتاة ويأمر أمه أن تبكي، ثم يستعيد أمام قومه صورة من بسالة القتيل، ويتلهف عليه ليستثير فيهم الحمية إلى الحرب، ثم يقول إنه لم يكن خائضًا لَظَاها لولا ظلم تغلب، ليظهر براءته لدى قومه وإنه منصف محق في الثأر لابنه والانتقام له، ثم يصرخ فيهم هاته الصرخات الهائلة، يظهر لهم تغلب بمظهر الباغي الغشوم، وأنهم إن سكتوا حملوا سُبَّةَ الدهر وذلة الأبد:

قتلوه بشسع نعل كليب! إن قتل الكريم بالشسع غال

فأي نفس لا تهب؟ وأي قلب لا يستجيش؟ وأي صدر لا تزخر به نخوة العز، وسَورة الأحقاد القديمة؟ حتى إذا ما استيقن من صبوة قومه إلى الحرب هدَّد تغلبَ وافتخر بقومه ليؤجج فيهم نيران الحماس وينفخ في قلوبهم من روح البطولة، ثم صاح قائلًا:

قَرِّبَا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

وماذا يقول بعد ذلك وقد أيقظ في أنفسهم حميتها الخامدة فاندفعت عارمة طاغية تعصف بكل شيء، وظل يردد هاته الكلمات متحسرًا آنًا، ومستبسلًا آخَرَ، ومتفجعًا مرة، ومهيبًا بقومه أخرى، وعلى صوته تتناوب النبرات المختلفة: فمن رنة الحزن إلى صيحة الانتقام، ومن لهجة المسكنة إلى صرخات الجبابرة، حتى إذا لعب بألباب قومه واستثار مشاعرهم، فأصبحت مسحورة تنتظر أمره لعبت بعطفيه نخوة العز، وهاجت بنفسه عوامل الفخر المتأصل في الطبع العربي الصميم، فنسي الحزن والدموع، وانقلب إلى فارسٍ فاتكٍ يلهج ببأسه:

رب جيش لقيته يمطر المو ت على هيكل خفيف الجلال

ثم نهض بقومه إلى موقف الحرب يرتل لهم أغاني المجد القديم ويعيد على مسامعهم أناشيد الفوز والانتصار:

سائلوا كندة الكرام، وبَكْرًا واسألوا مذحجًا، وحَيَّ هلال
إذا أتونا بعسكر، ذي زهاء مكفهر الأذى، شديد الصيال
فقريناه حين رام قرانا كل ماضي الذباب عضب الصقال

أليست هاته القصيدة إنما هي خطبة رائعة ألقاها خطيب مُفَوَّهٌ عليهم بأفواه النفوس؟ ألا تذكركم هاته القصيدة النارية بتلك الخطبة التي ألقاها (أنطونيوس) على شعب روما يطالبهم بالانتقام لقيصر، فامتلك أهواءهم وأصبح يصرفها كيف شاء وأنى أراد، فإذا هم مظاهرون له بعد أن كانوا متألبين عليه؟

ومن هاته الآثار التي أثرتها النزعة الخطابية كثرة المترادفات في اللغة العربية كثرةً هائلة، وما ذلك إلا لأن الخطابة تؤثر الفصاحة على أي شيء آخر، ولا بد للفصاحة من مورد غزير تستمد منه جمال القول وبراعة الأسلوب، ومنها ميل العرب إلى الإيجاز ميلًا قويًّا حتى إنهم ليعدونه روح البلاغة، وليس ببعيد عنا خبر ذلك البدوي الذي وقف على خطيب لا يحضرني اسمه وكان مُدِلًّا بقوله، فسأله ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز، فقال: وما الحصر؟ قال: ما أنت فيه منذ اليوم. وما ذلك إلا لأن طبيعة العرب الخطابة، والخطابة منشؤها حدة الطبع، ومن كان حَادَّ الطبع فإنه لا صبر له على الإطناب والإسهاب؛ لأن الطبع الجادَّ متسرع عجول، عجول في حكمه، عجول في فعله، عجول في قوله أيضًا. ولا يلائم هاته السرعة النفسية إلا السرعة في أداء المعاني على أخصر أسلوب، وذلك هو الإيجاز، وهاته النزعة الخطابية التي تؤثر الإيجاز وتميل إليه هي التي فرضت في الشعر العربي (وحدة البيت)، فكانت القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي، وإنما هي كون صغير تُحشر فيه الأفكار حشرًا وتُرَصُّ فيه المعاني رصًّا …

ثم إن هذا الطابع الذي انطبعت عليه الروح العربية آدابها وأذواقها الروحية وليس للعرب به يدان، بل إن ذلك كل ما يمكن أن يُنتظر من أمة عاشت على ذلك النحو الخاص من المعيشة وفي تلك القطعة الخاصة من الأرض، فقد نشأ العرب في رقعة من الأرض ساهمة واجمة لم تجر عليها الطبيعة ريشة الفن، ولا ضربت عليها سحر الجمال، فظلت محرومة من ذلك الجمال الإلهي الذي يغمر النفس بما يفيض عليها من سعادة الحس ونشوة الشعور، حتى كأنما حقت عليها لعنة الحياة الناقمة، وحل عليها سخط الأبد الرهيب!!

شب العرب تحت سماء ضاحية صاحية، لا يحجبها سحاب مركوم، ولا يسترها ضباب كثيف، وليس تحتها غير الصحراء الأبدية الصامتة التي لا يعرف الطرْف لها حدًّا، تضرب في مراكبها سمائم القيظ وأرواح الرياح، مروعة تائهة شاحبة كأرواح ضائعة في آباد الجحيم … فكان لهم من ملامح الصحراء الشاحبة، ومن طبيعة الأرض القاحلة الجدوب، هذا النحو من الحياة الذي عاشوا عليه، هذا النحو الذي لا يعرف رغد العيش ولا روح السلام، ولا يفقه دعة الحياة الآمنة المطمئنَّة، ولا غبطة العيش الرخية الحالمة، وإنما هو ثورة جامحة كالرياح، ظامئة كالهواجر، مشرقة كشمس الظهيرة، لا ترتوي ولا تشبع، ولا تسكن إلى الراحة، ولا تخلد إلى السكون.

وكيف يستمرءون لذة الأمن الوادعة، وقد طوحت بهم يد القدر في تلك الأرض الشحيحة الممسكة التي لا يجدون فيها ما يدفع غائلة الجوع ويصد عن إضرام الحروب؟ وما الذي يشغلهم عن إسعار الحروب وهم مخلدون إلى البطالة في أكثر الفصول، وكان لهم من صحو السماء، ووقدة الصحراء، ولفح الهواجر، صفاء في النفس، وتلهب في الطبع، وحدة في المزاج.

وكان لهم من تلك الحياة النابية القلقة، ومن هذا المزاج المشتعل والطبع المتوثب، ومن هاته النفس الصاحية المشرقة، كان لهم من كل ذلك تلك الروح الخطابية الثائرة التي تعصف بكل شيء ولا تلوي على شيء، فإنه متى اجتمع للنفس صفاء القريحة وحِدَّةُ الطبع ونُبُوُّ الحياة كانت خطابية ولا ريب، لأن الحياة الثائرة تجعل هَمَّ الناس في ألسنتهم، لأن الكل يَوَدُّ قَوْدَ الجموع بلسانه وخوض المعامع بسيفه، والطبع الحاد يجعل الكلام يندفع من أقاصي النفس اندفاعًا متسقًا متوازنًا، وصفاء القريحة يعين على تخير الكلمات. وهل الخطابة في الحقيقة إلا اندفاعات منقطعة وحركات متباينة وألفاظ فخمة رائعة. وكذلك تكونت النزعة الخطابية في النفسية العربية بحكم الطبيعة وبمفعول الوسط، وكذلك كان الروح العربي خطابيًّا صميمًا. أما المادية فقد تكونت في أنفسهم لأن العرب — كما سبق — لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة الحياة الناعمة وطلاقة الطبيعة الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة الدءوب التي لا تفتأ تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور، أو يكسبهم تلك الطبيعة الساجية الوادعة التي تنصرف إلى ما حولها من جمال الوجود مفكرة ملتذة شاعرة. لم يكن لهم من ذلك شيء: لا تلك النزعة ولا هاته الطبيعة.

إذ ذاك شأن أمة لبست من نضارة الحياة درعًا قشيبًا وعاشت عيشة غضيرة خضلة، وتذوقت من بهجة الكون ورواء الوجود لذة شعرية صافية لم يرنقها قطوب الأرض ولا سهوم الفضاء، واكتسبت من كل ذلك مزاجًا وادعًا مطمئنًا ونفسًا خيالية شاعرة. أما العرب فقد عرفتم لهم طبعًا متسرعًا عجولًا وأرضًا مغبرَّةً كالحة لا يزالون يمشون في مناكبها عسى أن يجدوا مكانًا مخصبًا تسوم فيه راعيتهم وتمرح فيه أطفالهم فإن وجدوه حسبوا أنفسهم سعداء!!

وما أحسب أن من عاش بين مثل هذا الطبع الجموح وتلك الطبيعة العارية بمستغرق في الفكر أو متعمق في الشعور، وأنى له بمثل ذلك والطبع العجول يحتثه ولا يدعه يتريث في فكر أو عمل، والطبيعة الكالحة لا تحرك في نفسه المشاعر ولا تحيي

دفائن الإحساس، وليت شعري! ما الذي يوقظ الحس وينبه طائر الخيال إن لم يكن هو ذلك الجمال الفني الذي ينسدل على الكون وينسجم على ما بين السماء والأرض؟

فقد رأيتم كيف تضافرت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق الروح العربية مطبوعة بطبائع الخطابة، مصبوغة بصبغة مادية خالصة.

ولكنكم حَرِيُّونَ بعدئذٍ أن تقولوا: إن هاته العوامل لا يمكن أن تؤثر إلا في العصر الجاهلي؛ إذ فيه وحده يمكن توفر هاته العلل والأسباب، أما العصر الأموي والعصر العباسي والعصر الأندلسي فهي بمعزل عن مثل هاته العوامل التي ألقت على الروح العربية ذلك الرداء، حيث قد تغيَّرت في مثل هاته العصور الأوساط الطبيعية والمعنوية التي عاش فيها العرب وأَلِفُوها. فما السبب إذن في أن الأدب العربي قد ظلت تسود عليه روح واحدة في جميع هاته العصور، وقد ظلت نظرته إلى الحياة هي النظرة الأولى البسيطة الساذجة التي لا تعلق بغير الظاهر المحسوس؟

والجواب هو: أن هاته العصور الثلاثة قد آثرت على آدابها عوامل أخرى قربت بينها وبين الأدب الجاهلي في الروح والفكر والخيال وإن لم تَقْوَ على رَدِّ مفعول الزمن في الأسلوب، فاختلفت بينها الأساليب اختلافًا بعيدًا.

العامل الأول: الوراثة، فقد كان العصر الأموي عصرًا عربيًّا صُراحًا في طبعه ومنزعه وشعوره، لم تختلط فيه الأمة العربية بغيرها من شعوب الأرض اختلاطًا كبيرًا يدخل في نفسيتها عناصر أخرى غريبة عنها، ولا تبدل عليها الوسط الطبيعي الذي عاش فيه العرب الأولون، فظلت لذلك حافظة لميراثها الروحي الذي ورثته عن آبائها الأقدمين، معتزة به لا تبغي عنه حولًا ولا ترضى غيره.

وظلت آداب هذا العصر شبيهة كل الشبه بآداب الجاهلية الأولى، لا أثر للتجديد فيها إلا هذا الشعر القصصي الذي انفرد به ابن أبي ربيعة من بين شعراء عصره أجمعين، وإن كان جديرًا أن يسمى توسعًا لا تجديدًا؛ لأن الشعر الجاهلي لم يَخْلُ من مثل هذا الفن خلوًّا تامًّا، ولكن ابن أبي ربيعة قد بلغ فيه شأوًا لم يصلوه. وإلا هذا الشعر السياسي الذي أدخله الزعماء إدخالًا وأوجدته حالة الأمة العربية في ذلك العصر الحافل بأسباب التنافس والأحقاد. على أن هذا النوع من الشعر أيضًا قد كان معروفًا في أدب الجاهلية ولكن باسم غير هذا الاسم الذي عرف به في العصر الأموي، ولغرض غير الذي يراد منه فيه، وأعني به ذلك النوع الذي يتمثل واضحًا جليًّا في معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، هذا النوع الذي كان الشعراء يندفعون فيه اندفاعًا

منشؤه تنازع القبائل لا على العرش والسلطان كما كان في أكثر المنازعات الشعرية في العصر الأموي، ولكن على الشهرة بين العرب بما يكسب الحمد ويجلب المجد.

وظلت الأمة العربية محتفظة بميراثها المعنوي إلى أن جاء العصر العباسي فاختلطت الأمة العربية بغيرها من شعوب الأرض، وامتزج الدم العربي بغيره من الدماء الأخرى امتزاجًا عظيمًا، واستوطن كثير من الأعراب المدن والأمصار يتملُّون جمال هاته الحضارة الناشئة الجميلة، فكان لهذا كله أثره في اختلاف الوسط الطبيعي ولون الحياة وفي المزاج العربي الموروث، وكان لهذا الأثر أن ظهرت في الأدب العربي ظاهرة جديدة هي الشعر الطبيعي الذي لم يعرفه الأدب الجاهلي والأدب الأموي إلا معرفة تكاد تكون منعدمة، ولكن المزاج العربي العتيد الذي لم يزل قويًّا شاعرًا بنفسه قد طبع هذا النوع الجديد من الأدب بطابعه الخاص وأسبغ عليه حُلَّةً ضافية من نزعته المادية، فكان حسيًّا لا يتحدث إلا عن اللون والشكل وما إليها إلا شيئًا قليلًا ضئيل الأثر حاول أن ينظر إلى الطبيعة نظرة قوية نافذة.

وأما الأندلسي فقد تأثر بذلك المزاج العربي الذي أورثه إياه العرب كما تأثر الأدب الأموي والعباسي من بعده ولكنه كاد يكون لنفسه مزاجًا خاصًّا لولا حكم القدر، فإن العرب لما ذهبوا إلى الأندلس مع طارق بين زياد وفتحوها أعجبتهم تلك الأرض الجميلة المخصبة، فاستوطنها كثير منهم وظلوا يتقاطرون عليها يحملون معهم أمزجتهم العربية وميراثهم الروحي الصميم الذي عملت في تكوينه العصور والأجيال إلى أن أصبحوا هناك شعبًا كثيرًا قويًّا له عاداته وأخلاقه وطباعه، وله ما للعربي القديم من أنفة وعزة نفس وحدة طبع وادِّعاء عريق، وله ما للعربي القديم من تغنٍّ بمجد أسلافه وتَمَدُّحٍ بمفاخر آبائه، حتى إن عبد الرحمن الداخل لما يَمَّمَ الأندلس ألفى الحمية العربية مشبوبة بين تلك القبائل وألفى النعرة القديمة التي نبهتها حوادث العصر الأموي تكاد تندلع عن فتنة شعواء بين اليمانية والمضرية؛ حتى إنهم كانوا يتبادلون الولاية كل عام لقبيلة! وكان هذا الشعب العربي النازح الذي بيده مقاليد الأمور ينظم الشعر بتلك الطبيعة العربية التي تنفخ فيه من روح العرب فتجعله عربيًّا لا فرق بينه وبين الشعر العربي في الشرق من حيث الروح والنزعة، بل وحتى الأسلوب، ولكن امتزاج هذا الشعب العربي بالعنصر الأندلسي امتزاجًا شديدًا، ودخول هذا العنصر في الإسلام واتخاذه اللغة العربية أداة للتعبير عن ذات نفسه من شعر ونثر وحديث، واختلاف بلاد الأندلس عن جزيرة العرب في الهواء والمشهد وطبيعة الأرض، كل هذه الأسباب قد

عملت عملها فأثرت في الأسلوب الأندلسي وطبعته بطابع تلك الأرض الجميلة وصقلته بصيقل ذلك الوسط فأصبح أنيقًا رشيقًا يحاكي هواء الأندلس لطفًا ورقة، ولكن الروح الشعري قد ظل بادئ بدء كما عهدناه في جزيرة العرب، ولما طال الزمن على الأمة العربية في ذلك البلد وتأثرت بروح الأمة الأندلسية وضعف فيها المزاج العربي الموروث إذ ذاك أحست الأمة الأندلسية إحساسًا غامضًا بالحاجة إلى التعبير عن روحها الأصلية التي تستوحي من طبيعة الأندلس وتمتاح من نهر الحياة الأندلسية، وأحس الشعراء بظمأٍ داخلي في أنفسهم إلى تَعَرُّفِ منابع جديدة للشعر، فجدوا في البحث ودأبوا في الطلب، ولكنهم لم يُوَفَّقُوا في بحثهم، فلم يعثروا على المنبع الحقيقي الذي يَتَنَدَّى ماؤه على الكبد الظامئة؛ ذلك لأنهم بحثوا عن منابع الشعر في قشور الحياة وأزيائها وفَتَّشُوا عن حقيقة النفس في فنون الكلام، فجددوا في الأوزان ولم يجددوا في الروح وتفننوا في الأساليب ولم يتفننوا في الجوهر واللباب. ولو لم يعجلهم القدر المتاح لظفروا بما تَشَوَّفَتْ إليه أرواحهم ولكان في الأدب العربي نوع قوي عميق لا عهد للأدب العربي بمثله، ولكن جف القلم بما هو كائن، وأخمد القضاء ذلك اللجوج.

العامل الثاني: ما كان يفهم من الأدب عند نقدة الإسلام؛ فإن هؤلاء النقدة كانوا لا يفهمون الأدب على حقيقته التي ينبغي أن يُفهم عليها من أنه صوت الحياة الذي يهب الإنسانية العزاء والأمل ويرافقها في رحلة الحياة المُمِلَّةِ المضنية المتعسفة في صحراء الزمن، وأنه المعزف الحساس الذي توقع عليه البشرية مراثيها الباكية في ظلمة الليل وأناشيدها الفرحة في نور النهار، وإنما كانوا يفهمون منه فهمًا معكوسًا يختلفون في تأويله ويتفقون على مداوله، فهم يتفقون على أنه لا يقصد لنفسه كفنٍّ جدي من فنون الحياة له روحه وأطواره ونزعاته، لكنهم يختلفون في الغرض من استعماله، أما القدماء كعمرو بن العلاء وطبقته فقد كانوا ينظرون إلى الأدب كوسيلة من وسائل الدين؛ لأنهم كانوا لا يمارسونه ويدرسونه إلا ليتفهموا به غريب القرآن والسُّنَّةِ، وهذا الفهم الذي فهموا به الأدب قد جعلهم لا يفهمون من الأدب إلا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب ليس وراءها روح ولا فكر، وهو الذي جعلهم يعتقدون أن الأدب الجاهلي هو من خير المنتخبات العقلية التي عرفها العالم كأن العرب هم كل ما بَرَأَ الله من قرائح وعقول. وقد لج بهم هذا الفكر حتى تعصبوا للأدب الجاهلي وازدروا ما أنتجه الذهن الإسلامي، وحسبكم دليلًا ما ذكره الأصمعي من أنه جلس بمجلس أبي عمرو بن العلاء ثماني حجج ما سمعه استدل ببيت إسلامي قط. فكان

إذا سئل عن ذلك أجاب: «ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فمن عندهم، ليس النمط واحدًا. ترى قطعة من الديباج وقطعة مسح وقطعة نطع» ولماذا هذا؟ لأن الشعر الجاهلي أمتن أو أغرب؟ كلا فإن في شعر الأخطل والفرزدق ما فيه من متانة وجزالة وفي رجز العجاج ورؤبة من الغرابة ما يعجز عنه شعراء الجاهلية، ولكن لأن الشعر الجاهلي هو الذي يثقون بما فيه من لغة يتخذون منها مادة صالحة لتفسير القرآن وشرح الحديث ومعرفة ما فيهما من بلاغة وإعجاز.

وعلى هذه الفكرة الدينية في فهم الأدب، هذه الفكرة التي لا تفهم منه إلا أنه ألفاظ فخمة جاهلية بنوا لهم منطقًا خاصًّا غريبًا لا يخلو من شذوذ، وهو أن الخير كل الخير — إذا أراد الشعراء أن ينظموا الشعر! — هو أن يتابعوا العرب في الطريقة التي ساروا عليها في شعرهم من بدء القصائد بالنسيب والتشبيب ووصف تَرَحُّلِهَا وآثارها الباقية من دمنة مسودة ونوى جفيف، أو وتد مضروب وخباء منصوب وماشية راعية وإبل راعية، حتى ولو كان الشاعر من سكان الحواضر الذين لا يعرفون البادية ولا يفقهون الخباء! وحتى ولو كان شيخًا متهدمًا لا يخفق قلبه بالحب ولا تطربه نغمات الغزل، ومن التوسل إلى المدح بامتطاء الإبل الضوامر وقطع الفلوات المترامية وخوض الموامي القاحلة التي يرقص في أطرافها الآل ويلتمع السراب حتى ولو كان سميرًا من سُمَّارِ الملك الذين لم يتجشموا لرؤيته غير قطع شارع أو منعرج! ولم لا يكون ذلك خيرًا ولم لا يكون واجبًا؟

أليس امرؤ القيس قد كان لا يبدأ القصيدة إلا بالتحدث عن محبوبته؟ أليس النابغة أو الأعشى قد كان لا يمدح الملك إلا بعد أن يصف ما اعترضه في سبيله من الفلوات المقفرة التي جابها بأعمال المطايا؟ كأنهم يحسبون — سامحهم الله — أن مجرد كون امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية قد قال الشعر على نحو خاص يلائم طبعه وحياته يلزم الشعراء من بعده باتباعه واقتفاء خطاه وبأن لا يخرجوا على ما سَنَّه لهم أميرهم الضِّلِّيلُ من قانون وشرع. ألا ساء ما يحكمون!

وهذا المذهب اللفظي والديني في فهم الأدب هو الذي كان أبو نواس يندد عليه متبرمًا ساخرًا فيقول:

راح الشقي إلى دار يسائلها ورحت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ثكلت أمك قل لي من بنو أسد

ومَن تميم؟ ومن بكر سقوا مهلًا ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا شفي قلب من يصبو إلى وتد!

ويقول:

لا تبك رسمًا بجانب السند ولا تحد بالدموع للجدد
ولا تعرج على حمى عرج والنوء كالحوض بالملا الجلد
وعد عنها إلى دساكركم تربط بها خيمة إلى وتد

ولكنه بالرغم عن ذلك كان كثيرًا ما يسترضي أنصار هذا المذهب لكي يقبلوا على قصائده ويروونها فيتبع ذلك المذهب الذي يطربون له، فيبكي الربع وينعى الأحبة ويصف الناقة والمفازة وهو لم يغادر بغداده كما فعل في قصيدته:

أربع البلا! إن الخشوع لبادِ عليك وإني لم أخنك ودادي

وأما الطائفة الثانية من النَّقَدَةِ فهي سليلة الأولى وربيبتها، وقد كان رأيها في الأدب أنه وسيلة من وسائل اللهو وتزجية الفراغ، وعلى عهد هؤلاء انتشرت تلك الأفكار المسمومة، التي لا تفهم من الشعر إلا أنه نوع من أنواع الشحاذة المنظمة وضربٌ من ضروب الاستجداء لا غير، والتي تجأر بكل قحة ورقاعة أن أعذب الشعر أكذبه، ومن أيمة هاته الطائفة — بكل الأسف — وطنينا ابن رشيق، فقد كان يصرح بمثل هاته الآراء في غير موضع من مواضع العمدة، وكان من آثار هاتين الطائفتين في الأدب العربي أن أصبح لا يُعْنَى فيه إلا باللفظ وما مَتَّ إليه من مجاز واستعارة وجناس ومقابلة، وإن كثرت ثروته اللفظية وقلت ثروته المعنوية، إذ انصرف الشعراء إلى تمويه الألفاظ وتنويقها، وتجديد الأساليب المتباينة دون أن يجدوا شيئًا في جوهر الشعر وروحه، بل ظل كما عهده العرب في الروح والفكر والخيال، وإن كان الشعر العربي كذبًا أكثره. وكيف لا يكون كذلك وقد أصبح من الفرض على الشاعر أن يستهل القصيدة بالغزل والنسيب عند إرادة المدح وأن يصرف هَمَّهُ في المدح إلى المبالغات الكاذبة والإطراء البغيض؟

العامل الثالث: عدم اطِّلَاعِ العرب في جميع العصور الماضية على آداب الأمم الأخرى، فإن العرب بالرغم عن أنهم ترجموا من مختلف العلوم العقلية ما أحدث الأثر

الجميل في الذهن العربي لم يترجموا من آداب الأمم الأخرى ما يحدث انقلابًا في الروح العربي، فهم قد ترجموا فلسفة اليونان وحكمة فارس وعلومها، أما آداب اليونان والرومان فإنهم لم يترجموا منها شيئًا، وأحسب أنهم لم يترجموا هاته الآداب لما فيها من النزعة الوثنية، ولكن هذا لا يمنع الشك والتساؤل، فما لهم لم يترجموا أدب فارس والهند وقد ترجموا حكمتها واطلعوا عليها؟ هذا سؤال لم يُجب عليه التاريخ، وما أخال السبب في ذلك إلا الغرور، فقد كان العرب معتزين بأدبهم يحسبونه أنه هو كل شيء في العالم فلم يجدوا حاجة تدفعهم إلى ترجمة الآداب الأخرى وظل المثل الأعلى الذي تحتذيه العصور الإسلامية في روحه وأسلوبه هو الشعر الجاهلي.

فكان لعدم اطلاع العرب على آداب الأمم الأخرى أثر كبير في إبقاء الروح الشعرية العربية على حالها في جميع الأجيال زيادة على تلك الدعايات المتكررة التي قام بها طوائف النقدة في جميع العصور، وعلاوة على ما حمل التاريخ هاته الأمم والشعوب من ذلك الميراث الروحي الذي خلفه العرب لأحفادهم.

وقد تآلفت هاته العوامل الثلاثة على إبقاء ذلك المزاج العربي الصميم في نفسيات الأمم الإسلامية وعلى طبع آدابها بالطابع الذي انطبع به الأدب الجاهلي من قبل.

هوامش

(١) هو سيد من سادات العرب وفرسانهم، ولما قتل المهلهل ابنه في حرب البسوس جز ناصية فرسه (النعامة) وقطع ذنبها، وحلف أن لا يكف عن الحرب حتى تكلمه الأرض، فلما أسرف في القتل حفروا سربًا في الأرض وأمروا رجلًا أن يكلمه من داخله، وبذلك كف عن الحرب.

(٢) وائل، قبيلة من قبائل العرب.